مِنْ قَصَصِ الصَّالحِينَ والزَاهِدِينَ

إعداد
حسن رمضان

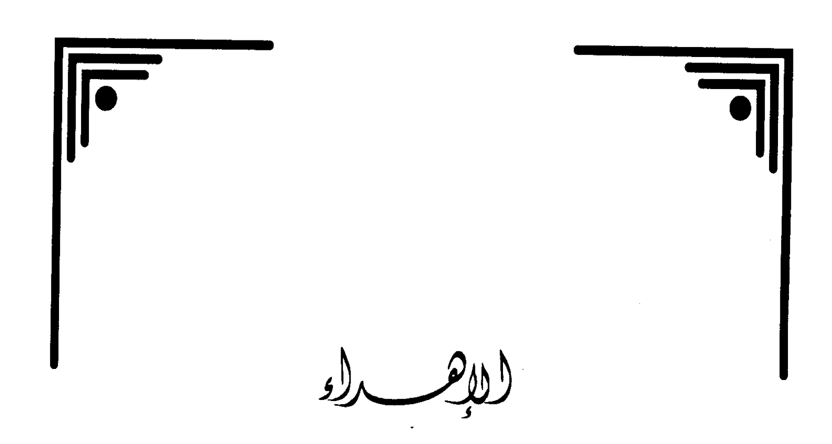
مراجعة
هشام عواض

الدار الذهبية



الدار الذهبية للطبع والنشر والتوزيع

تليفون : ٣٥٥١٧٤٨ ـ ٣٥٤٤٧٤٨ فاكس ٣٥٤٦٠٣١



الإهداء

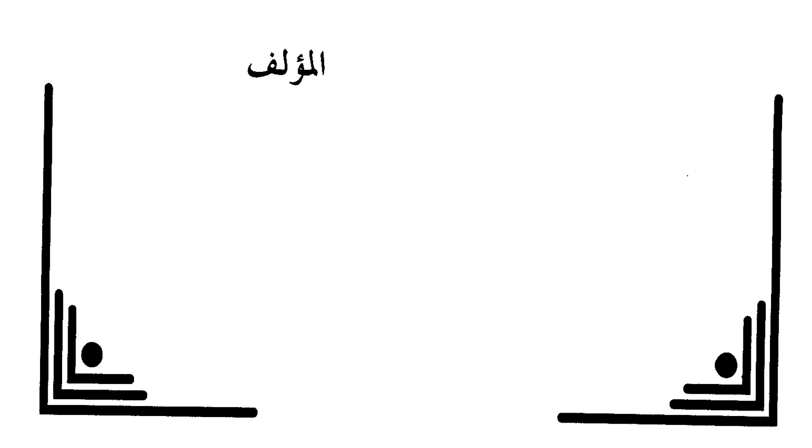
إلى الناس ..

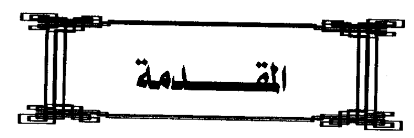
كل الناس !! ..

نقدم هذا التراث الإنسانى الرفيع

من أجل العودة إلى إنسانية الإنسان

المؤلف





المقـــدمة

الحمد لله الذى قصَّ على نبِّيه ﷺ أحسن القَصَص ، وفطر الناس على حب القصص ، وحث على الانتفاع بها وأخذ العِبْرة منها .

والصلاة والسلام على رسوله الخاتم الذى بلَّغ ما أَوْحى به الله تعالى إليه من قرآن وسُنَّة ... وَعَظَنا فأتقن ، وقصَّ علينا فأحسن .. صلى الله عليه وآله وصحبه والتابعى لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ..

فإن التراث الإسلامى هو تراث إنسانى فى المقام الأول ، والقَصَص المستمد منه والموجود فى ثناياه هو فى غالبيته قَصَصٌ حقيقى مستمد من أحداث وقعت فى أماكن وأوقات محددة منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم حتى وقتنا الحاضر .

وتزخر كتب الأدب والتاريخ العربى الإسلامى بكَمٍّ هائل من هذا القَصَص الذى يُعدُّ من أرقى أنواع الدراما وأمتعها وخاصة ما نسميه بـ « فن القصة القصيرة » فهى قِصَص تُعبِّر عن « لقطة » أو « موقف » ، حيث تطلق الخيال لقارئها عَبْرَ المكان والزمان والشخصيات والحركة والحوار والمفهوم ضِمْنًا والمسكوت عنه ! ..

وقد آن الأوان أن نُعيد فتح هذا الكنز المطمور ، وأن ننهل من معينه، تمهيداً لتقديم وتطوير وتحسين الفنون الدرامية المعاصرة ، فإنه لا

يقدر على إعطاء الجديد إلا من أتقن القديم بالاطلاع والتفاعل ..

إن المتعة والفائدة يجتمعان فى هذا القَصَص القديم الجديد ، وقد انتقينا ما يناسب العصر ويزكى النفس ويُربِّى الضمير ويحقق ما نستهدفه من الجمع بين الأصالة والمعاصرة ..

نسأل الله القبول ،

المؤلف

★ ★ ★

مـذاق النيَّـــة..

خـرج أحـد الأمـراء للبـرِّية كي يـصطاد ، فـأدركه العـطش ، فتـلفَّت حوله وهو على فرسه يبحث عن مكان أو إنسان يستسقيه فوجد بستاناً من بعيد ، ولما اقترب منه وجد عنده غلاماً يحرسه ، فطلب الأمير من الغلام ماءاً ليشرب ، فقال الغلام :

– ليس عندنا ماء ، فالبستان يسقى بماء السماء . .

وكان البستان مليئاً بأنواع الأشجار ، وكان الوقت أوان ظهور ثمار الرمَّانة ، فقال الأمير للغلام :

– ادفع لى رُمَّانَة أبلُّ بها عطشى !

فدفع الغلام له برُمَّانة ، مالبث أن أكلها مستحسناً طعمها ، واجداً حلاوة الطعم وحلاوة الرى فى فمه ، فنوى أخذ البستان من صاحبه رضى أم أبى !! وقال للغلام :

– ادفع لى أُخرى .

فدفع له الغلام رُمَّانة من نفس الشجرة وقد وجد أنها أعجبته ، لكن الأمير لم يستسغ طعم الرمَّانة الثانية فلفظها وقال للغلام :

– أما هى من الشجرة الأولى ؟

قال الغلام مؤكدا :

– بلى ..

قال الأمير متعجباً :

– كيف تغيَّر طعمها ؟!

قال الغلام سارحاً ببصره :

– لعل نيَّة الأمير تغيرت ! ..

فتفكر الأمير فى كلام الغلام فرجع عن نيَّة غصب البستان ، وقال للغلام :

– ادفع لى رُمَّانة أخرى .

فدفع الغلام للأمير رمانة من نفس الشجرة فوجدها أحسن من الأولى، فقال للغلام متعجباً :

– كيف صَلُحَت ؟!!

قال الغلام وقد عَلَتْ وجهه ابتسامة عريضة :

– بصلاح نِيَّة الأمير [1] .

★ ★ ★

---

(١) نزهة المجالس .

تفـــرُق الصـــالحين

عاش الرجل الصالح ما عاش مع امرأته ، ولما اختلفا واشتد الخلاف بينهما وتصاعد النزاع واتسعت هوَّة الشقاق ، ولم يَعُد للوفاق محل ، ولا للصلح طريق وسُدَّت كل طرق التحكيم والتقريب ، لم يكن هناك بُدٌّ من الفراق . .

وهكذا طلَّق الرجل الصالح امرأته طلقة رجعية ، لاتبين منه إلا بعد مرور العدة التي هي ثلاثة أشهر (تسعين يوما) وفارقها بالمعروف . .

فسأله أحد أصدقائه عَقْبَ الطلاق :

– ما هو سبب الطلاق ؟

قال الرجل الصالح في هدوء :

– هي مازالت في العدة ، فهي زوجتي ، وأنا أكره أن أُسئ إلى زوجتي . فلما انقضت عدتها ، عاد السائل يسأله مرة أخرى :

– لقد تزوجت فقل لنا ما سبب الطلاق ؟

فرد الرجل الصالح مبتسماً :

– لقد أصبحت زوجة لغيري ، وأنا لا أتحدث عن زوجة غيري ![1] . .

★ ★ ★

---

(١) أنيس المؤمنين وسمير الصالحين : بتصرف .

الأيـــــام دُول

جلس الرجل غليظ القلب يتناول طعام الغداء بجسده الضخم وملامحه الغليظة ، وعلى المائدة أصناف الطعام تتوسطه دجاجة مشوية، وبجوارة كانت تقف امرأته تنتظر أوامره حتى ينتهى من الطعام . .

وفجأة دق باب البيت ، فقام الرجل غاضباً ليعرف من هذا المزعج ، فإذا بسائل قد بَدَت عليه علامات الجوع والتعب وأمارات الأصل الطيب والعز القديم ، ولكن لم يشفع له هذا عند الرجل غليظ القلب الذى استقبله بوابل من التوبيخ والنهر ثم طرده شر طردة . . فانصرف السائل باكياً منكسر الخاطر محطم النفس لا يلوى على شئ . .

لم يقنع الرجل غليظ القلب بتلك الزوجة الطيبة المطيعة ، واستمر على سيرة التوبيخ والزجر وسوء الخلق معها حتى انتهت العلاقة الزوجية بينهما بالطلاق . .

ولكن الله تعالى لم يترك هذه المرأة الصالحة وحيدة ، فبعد مرور ثلاثة شهور – وهى مدة المطلقة – عوضها الله برجل طيب سهل الخلق ذو مروءة وحنان ورحمة ، فكان نعم الزوج وكانت نعم الزوجة ، وسارت العلاقة بينهما كأحسن ما يكون . .

وفى يوم ، وعلى الغداء طرق سائل باب بيتهم ، فقال الرجل الطيب لامرأته :

– ادفعي إليه هذه الدجاجة . .

فخرجت بها إلى السائل فأعطته الدجاجة وعادت والدموع فى عينيها ، فسألها زوجها فى قلق :

– ماذا بك ؟

– السائل ! . .

– ماذا به ؟ ألم تعجبه الدجاجة ؟!

– كلا ! إنه زوجى الأول . .

ثم قصَّت عليه قصة توبيخ طليقها لسائل جاء وقت الغداء ثم طرده . .

فقال لها زوجها الطيب مبتسماً :

– ومم تعجبين ؟ وأنا والله السائل الأول !! [1]

★ ★ ★

---

(١) مائة قصة وقصة : ص ١٠ .

إيثار حتى الموت !

حين تزوج الصالح نوى أن يُعِفَّ نفسه بهذا الزواج وأن يقيم أسرة صالحة هانئة سعيدة ، وينجب أطفالاً يحفظون كتاب الله ويحافظون على الفرائض ذاكرين الله كثيراً . .

إلا أنه اكتشف فى امرأته مواهب النكد ! وسوء الخلق ! وكثرة الشجار ! والاهتمام بتوافه الأمور وتعظيم قدرها !! . .

فكانت دائمة الإيذاء له ، تعرف موضع غضبه فتفعله ، وموضع رضاه فتجتنبه ، تحاول أن تشغله عن عبادته ، وتجرحه بألفاظها النابية . .

ولم يشفع له عندها حسن خلقه معها وصبره عليها واسترضائه لقلبها . .

وقد بلغ سوء خلقها إلى أسرة زوجها وأصدقائه وزواره ، فقال له أحد أصدقائه يوماً :

– لِمَ لا تطلقها وتستريح ؟!

قال الزوج الصالح :

– أخشى أن أطلقها فيبتلى بها غيرى فتوذيه كما تؤذينى .

قال الصديق مستفسراً : – ولكن ماذا أنت صانع ؟

قال الزوج الصالح :

– أصبر على أذاها ، وأحتسب ذلك عند الله ، عسى الله أن يصلح حالها أو أنجو منها بموت أحدنا !! . .(1)

(1) أنيس المؤمنين وسمير المتقين : صفوك سعد الله المختار . بتصرف .

بركة الفاتحة (الشافية)

يقول الله تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾[1] .

فللقرآن الكريم وجهان :

الأول : شفاء ورحمة .. وذلك للمؤمنين ..

الآخر : تعميق الخسارة وزيادتها .. وذلك للظالمين .

والمؤمنون هم الغالب على قلوبهم وأعمالهم الإيمان ..

والظالمون هم الغالب على قلوبهم وأعمالهم الظلم لأنفسهم ولمن حولهم ..

وقد أدرك هذه الحقيقة المؤمنون الأوائل ، حيث فَطِنوا لآثار آيات الله تعالى فى الشفاء فاستعملوها كرقية وتحصين ووقاية من الأمراض البدنية والقلبية ..

وقصتنا هذه تدور حول أثر سورة الفاتحة فى الشفاء ..

حيث كانت مجموعة من الصحابة فى إحدى المهمات الخاصة التى كلَّفَهم بها رسول الله ﷺ فمروا بأحد أحياء العرب وقد نفد زادهم فاستطعموا أهله فأبوا أن يضيفوهم ، وبينما الصحابة يتدارسون أمرهم إذ بسيِّد الحى يلدغه عقرب ! ، فأرسلوا إلى هؤلاء الصحابة رسولاً يسألهم فى لهفة :

---

(١) الإسراء : ٨٢ .

– هل فيكم من راق ؟ فإن سيِّد الحى لديغ ! . .

فسأله الصحابة :

– أى شئ لدغه ؟

قال :

– عقرب ، وبسرعة لأنه يموت ! . .

فقال واحد من المجموعة :

– نعم !

فالتفت إليه الصحابة مندهشين ، فقال :

– بعون الله وهدايته سأفعل !! . .

ثم ذهب مع الرسول مسرعاً نحو المصاب ، فوضع يده على رأسه ثم قرأ سورة الفاتحة سبع مرات ، فبرأ الرجل وذهب ما كان يشكو منه ، فعاد الصحابى مسروراً إلى جماعته وأخبرهم الخبر فابتهجوا ، وما لبث أهل الحى أن أرسلوا للمجموعة طعاماً وشراباً يقرونهم به ، وإلى الصاحبى الراقى قطيعاً من الغنم ، فقبلوا قرى الضيوف ، وأَبَى الصحابى أن يَقْبل الغنم حتى يستأذن رسول الله ﷺ . .

وكانوا فى طريق عودتهم ، فأتى النبى ﷺ ذكر القصة بأكملها له ، وقال :

– يا رسول الله ، والله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب ! . .

فتبسم النبى ﷺ وسأله :

– وما أدراك أنها رقية ؟

ثم قال :

– خذوا منهم ، واضربوا لى بسهم معكم[1] .

وشاع خبر الأثر الفعال الشافى الرحيم لسورة الفاتحة ، حتى اشتهر سيدنا عمر بن الخطاب من بين الصحابة رضوان الله عليهم أنه كان يرقى المريض بسورة الفاتحة فيشفى بإذن الله . .

ولهذا سُمِّيت سورة الفاتحة : « الشافية » للمؤمنين دون الظالمين .

★ ★ ★

(١) رواه مسلم ، وأصحاب السنن ، والدار قطني ، وذكره القرطبي في تفسير سورة الفاتحة (الجامع لأحكام القرآن جـ١) .

زمزم ماء يتحدى الأطباء !

بطلة قصتنا امرأة مصرية علاقتها بالإسلام مجرد تعارف عامَّة ، وأداء لبعض المناسك الموسمية كالصوم فى شهر رمضان ، والصلاة فى أوقات متفرقة . .

هذه المرأة شغلتها الحياة ومشاكلها فاستعانت بأسباب الحياة المجردة عن صاحب الأسباب وخالقها . .

كانت المرأة جميلة ، لكنها كانت عفيفة . .

لم تكن تتصور يوماً أن أسبابها الدنيوية المادية سوف تخذلها يوما أو تتخلى عنها ، حتى جاءها اليوم المشؤوم يوم أصاب جسدها المرض الخبيث « مرض السرطان » الذى اكتشفته فى رحلة متأخرة . . دارت على الأطباء فى « مصر » فأخبروها أن علاجها ليس فى مصر ، وعليها أن تتوجه إلى مراكز علاج متقدمة جداً للسرطان فى أمريكا تُعَدُّ أكثر المراكز تقدماً على مستوى العالم . .

حملت المرأة تقاريرها الطبية وصور الأشعة ونتائج تحاليلها المختلفة وتوجهت إلى أكبر هذه المراكز وأشهرها ، وبعد العرض والكشف وإعادة التصوير والتحليل . . وبعد الفحص من أكثر من طبيب عالمى ، اتفقوا جميعاً على استحالة علاج هذه المريضة قائلين لها بصراحة لا تخلو من صدمة لها .

- الخلايا السرطانية استفحلت ولن يستطيع العلاج الكيمائى السيطرة عليها ، ولن يُجْدى التدخل الجراحى معها ، فتقبلى مصيرك بسلام واستسلام ! . .

لملمت السيدة أوراقها وحملت حقيبتها عائدة إلى مصر ، فلا أقل من أن تدفن فى وطنها ووسَطْ أهلها . .

صعدت على سُلَّم الطائرة وجلست على مقعدها بجوار النافذة ، وبعد قليل جاءت راكبة ترتدى ثوباً سابغاً لا يكشف إلا وجهها وألقت عليها « السلام » وجلست بجوارها ، وما لبثا أن تعارفا ، وعرفت الراكبة سبب رحلة السيدة إلى أمريكا . . فبدا الاهتمام والحزن على وجهها أكثر من المريضة ذاتها ! . .

وبعد هنيهة لاحت للجارة ذات الثوب السابغ نصيحة مجربة فقالت لجارتها :

– علاجك أن تذهبى مكة للعمرة ثم تشربى من ماء زمزم بنيَّة الشفاء .

لم يكن لدى السيدة المريضة ما تخسره . كما أنه لم يكن لديها ما تفعله ، فقد استنفدت كل الأسباب المادية ووصلت إلى أقصى ما يمكن لبشر أن يصل إليه ، فلتطرق باب الله تعالى الذى بشرها الأطباء بقرب لقائها به عز وجل . . فلتذهب إلى مكة ولتغسل ذنوبها بماء دموعها ، ولتستغفر ، ولتتب من غفلتها . . وفعلاً ذهبت السيدة للقاء الله . .

اغتسلت ثم ارتدت جلباباً أبيض كأنه الكفن وأحرمت وذهبت إلى مكة ودخلت البيت الحرام وسعت وطافت وصلَّت فى خشوع وتَبَتُّل وانقطاع عن العالمين وشربت من ماء زمزم ما استطاعت وأخذت تشرب وتشرب بنيَّة الشفاء ، وكلما شربت شعرت كأن حياة جديدة تسرى فى

بدنها . . ودعت دعاء المضطر الذى لا يجد ملجأ ولا ملاذاً ولا غوثاً إلا عنده سبحانه . . وأسلمت أمرها إليه فى تفويض كامل . .

لقد كانت ضيفة مخلصة وصادقة عند الرحمن . . فى بيت الرحمن . . فلم يَرُدَّها الرحمن خائبة ، بل استجاب لها ، وسمع رجاءها، وأنفذ وعده :

« أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء »

أحسَّت المرأة التائبة بعد عودتها من العمرة بتحسن فى صحتها ، حتى الآلام التى كانت تعاودها اختفت تماماً ولم تعد تشعر بها !! . .

كانت المرأة تسمع عن الإيحاء ، وعن التوهم ، وعن الأحاسيس الكاذبة . . فأحبت أن تعيد الكشف عند من أيأسوها من الشفاء ، ليكون موقفاً للتحدى ، وحتى تتأكد من تمام الشفاء ! .

لملمت أوراقها العلاجية القديمة كلها وتوجهت لنفس المستشفى العلاجى فى أمريكا ولنفس الأطباء ، اطلعواعلى فحوصاتها وأشعاتهم السابقة وأعادوا الكشف عليها مرة أخرى فأصابهم الذهول ، وشكُّوا فى أجهزتهم العلمية ، كرروا الكشف والأشعة والتحليل فلم يجدوا أثراً للمرض !! . . سألوها :

– عند من تم علاجك ؟ وبأى وسيلة تداويت ؟ هل هناك علاج سحرى جديد لم يصل إلينا ؟ . .

ابتسمت وقالت وقد تيقنت من تمام الشفاء :

– تعالجت عند الله تعالى :

سألوها :

– ماذا تعنين ؟

قالت شارحة :

– ذهبت فأديت العمرة وشربت من ماء زمزم بنيَّة الشفاء .. هذا كل ما فعلت ! .. فإذا بالأطباء السبعة الأمريكيين يشهرون إسلامهم[1] .

★ ★ ★

(1) الخطب المنبرية : الشيخ عبد الحميد كشك جـ٦ بتصرف كبير .

بركة الطعام

أبو بكر الصديق صاحب رسول الله ﷺ وأول من أسلم من الرجال والصابر المحتسب على لأواء العذاب بمكة وقرين رسول الله ﷺ فى الهجرة وصِهْره الذى أنكحه ابنته البكر عائشة رضى الله عنها ، وصاحب الخلق الرفيع الذى بسببه قدَّمه المسلمون ليكون خليفة لرسول الله ﷺ وحمل أمانة الدفاع عن بيضة الإسلام والدعوة إليه . .

كان أبو بكر مثالاً للسخاء والكرم والجود ، فطالما بذل ماله فى سبيل الله ، سواء فى مكة بتحرير رقاب المسلمين الأرقَّاء ، أو فى المدينة بالإنفاق على قُرَّاء المسلمين وعلى الجهاد والغزو . .

جاءه مرة ثلاثة أضياف فاستقبلهم رضى الله عنه - كعادته - بالترحاب ، وقدم لهم الطعام ، فسمَّى أبو بكر وسمَّى الضيوف وبدأ يأكل وهو يتحدث مع ضيوفه الكرام هاشاً باشاً ، لكنه - رضى الله عنه - بعد وقت نظر إلى موضع طعامه وطعام أضيافه فوجد الطعام كما هو !! . . فجعل يأخذ لقمة ويضعها فى فمه ولكنه وجد عجباً !! . . كلما أخذ لقمه ربا أسفلها أكثر مما هى قبل ذلك ، ولما انصرف الضيوف ورفعت امرأته الطعام وجدت القصعة أكثر مما كانت ، فتبادل أبو بكر وامرأته النظرات مبتسمين فى وَجَل !! . .

حمل أبو بكر القصة بالطعام قاصداً رسول الله ومخبراً إياه بخبرها فدعا ﷺ حشداً من الصحابة والمسلمين فأكلوا منها وشبعوا [1] .

(١) رواه البخاري ومسلم .

عبد الله وعبد السلطان

رأى أحد الرجال الصالحين من عباد الرحمن رجلاً راكباً فرساً مُطْهَماً ويسير به متبختراً وقد انتفخت أوداجه شامخاً بأنفه مبتسما سعيداً مزهواً بنفسه فسأله الرجل الصالح :

– ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله ؟!

قال الرجل :

– أنا غلام السلطان !! .

فابتسم الرجل الصالح واستنزله كي يتحاور معه ، فنزل من على فرسه ، فقال الرجل الصالح في وُدٍ ظاهر :

– صِف لي قربك منه .

قال الرجل وقد أنس إلى وجه الصالح وارتاح إليه ولمس في لهجته أُلفة لم يعهد وكنف موطأ لم يتعود عليه ولين جانب اشتاق إليه منذ كان طفلاً عند والديه :

– أؤانس السلطان إذا جلس وحده ، وأحرسه إذا نام ، وأطعمه إذا جاع ، وأسقيه إذا عطش ، وينظر إلى كل يوم ثلاث نظرات يتفقدني .

قال الرجل الصالح :

– وما يصنع بك إذا غفلت عنه ؟

رد الرجل فى خجل :

– يعاقبنى وقد يضربنى ! . .

قال الرجل الصالح :

– وإذا أذنبت ؟

رد الرجل :

– تكون العقوبة شديدة وحاسمة .

قال الرجل الصالح :

– أنا أولى بالافتخار والزهو منك ! ، لأن مولاى هو الذى يطعمنى ويسقين ، ويؤنسنى فى وحدتى ، وإذا نمت يحرسنى لأنه لا تدركه سنَة ولا نوم ، وإذا أذنبت يغفر لى ، وهو دائم النظر إلىَّ عالما بحالى . .

قال الرجل وقد علت وجهه مشاعر فياضة من الغيظة والانبهار أضاءت وجهه بنورالهداية :

– صدقت ! إنى من الآن عائد إلى خدمة مولاك ومولاى ومولى السلطان ، عائد إلى عبودية الله رب العالمين لا عبودية الأمير .

ثم خلع ما عليه من ملابس رسمية وذهب ليُسَلِّم الفرس ، تاركاً خدمة السلطان إلى خدمة الواحد المنَّان .

★ ★ ★

سرُّ الهزيمة !

بلغ الرجل الصالح أن قومه قد فتنوا بشجرة ، يحكون حولها الكرامات وقضاء الحاجات وشفاء الأمراض وظهور الآيات البينات ، فتقربوا لها بأنواع القربات ، وأدُّوا حولها كل أنواع الشرك والعبادات ..

فكَّر الرجل الصالح فى أمر قومه ، وأهمَّه مصيرهم البائس الذى ينتظرهم فى الدنيا والآخرة إذا استمروا فى عبادة هذه الشجرة ، فوعظهم فلم يتعظوا وزجرهم فلم ينزجروا ، فلم يجد بُداً من قطع هذه الشجرة الملعونة حتى يقطع دابر الشرك من جذوره ، وحمل فأسه متوجهاً إليها فقابله إبليس ـ لعنه الله ـ فى صورة رجل وقال له :

– إن قطعتها عبدوا غيرها ، فارجع إلى عملك وعبادتك .

فقال له الرجل الصالح وقد ظن أنه ناصح أمين :

– لقد فكَّرت فى الأمر مَليّاً ، وإن قطعتها سيبين زيف قدرتها ، إنه الحل الوحيد .

قال إبليس وقد احمر وجهه غضباً :

– لن أمكنك من قطعها ولو بالقوة ..

وهجم على الرجل الصالح ، لكن الرجل الصالح صرعه بقوة ساعده ووضع رأس إبليس تحت قدمه، فقال إبليس محاولا إغراءه بالمال – لأن الرجل الصالح كان فقيراً حتى ينجو بنفسه ، وفى محاولة أخيرة لإنقاذ

شجرة الشرك :

– أنت رجل فقير ، اتركنى واترك الشجرة وسوف أجعل لك تحت وسادتك دينارين كل ليلة ، ومادمت أنت لا تعبدها فلن تضرك عبادتها، ولو شاء الله لأرسل رسولاً يقطعها .

كان الحديث عن المال نقطه ضعف الرجل الصالح ، فقال فى نفسه :

– نعم ! ما دمت أنا لا أعبدها فلن يضيرنى أمرها !!

وقبل عقد الشيطان !! . .

ثم رجع إلى بيته فلما أصبح وجد الدينارين ، لثلاثة أيام ، كل صباح يجد الدينارين تحت وسادته ، فلما جاء اليوم الرابع لم يجد شيئاً، فخرج بفأسه لقطع الشجرة ، فقابله إبليس مبتسماً حائلاً بينه وبين الشجرة واستشاط غضب الرجل وهجم على إبليس يريد أن يصرعه فصرعه إبليس ، فقال الرجل متعجبا وقد انفثأ غضبه كاتماً غيظه :

– كيف هزمتك أولاً بِسَهولَة ، ثم هزمتنى ثانيا ؟!!

قال إبليس والابتسامة الصفراء تعلو وجهه الملعون :

– لأن غضبك أولاً كان لله رب العالمين ، وغضبك ثانياً كان للدينارين [1] .



(١) الأحياء .

فراسة رابعة

الفراسة نور يقذفه الله فى قلب العبد، وعلى حسب طهارة القلب وسلامته وقوة الإيمان فيه تكون قوة الفراسة .

يقول شاه بن شجاع الكرمانى : (من عَمَّر ظاهره باتباع السُّنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وغضَّ بصره عن المحارم ، وكفَّ نفسه عن الشهوات ، واعتاد الحلال لم تخطئ فراسته) .

وشاه بن شجاع هذا لم تخطئ فراسته أبداً !! . .

قال رسول الله ﷺ :

- اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله [1] .

قال المنوى شارحا :

- . . . أى اطلاعه على ما فى الضمائر بسواطع أنوار أشرقت على قلبه فتجلت بها الحقائق ، فإنه يبصر بعين قلبه المشرق بنور الله . *

وهكذا كانت رابعة العدوية . .

قال القرشى : دخل على رابعة « رباح القيسي » و« صالح بن عبد الجليل » و « كلاب » فتذاكروا الدنيا ، فأقبلوا يذمونها . .

فقالت رابعة :

---

(١) رواه الترمذي .

* راجع كتاب « في القلب والنفس والحب » : هشام عواض . فصل « القلب والعين » .

– إنى لأرى الدنيا بترابيعها فى قلوبكم !! . .

قالوا :

– ومن أين توهمت علينا ؟!

قالت :

– إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكلمتم فيه !![1]

★ ★ ★

(١) رابعة العدوية : طه عبد الباقي سرور .

بركة التقوى وصلاة الاستخارة

كـان العلمـاء في قرون خيـر الإسـلام وعـزه يرحلون عـن بلادهم فى طلب العلم قـاطعين الفيـافى والقِفـار ، منقطعين عن الأهل والأصـدقاء ، مسافرين عبر أقطار المسلمين المترامية الأطراف . .

وكانت – غالباً – ما تنفد مؤنتهم ، وكانوا لا يستعينون إلا بالله ولا يسألون إلا إياه ، وكـان سبحانه وتعالى لهم نعم المجيب ونعم المولى ونعم النصير . .

ومن هؤلاء العلمـاء الأتقياء الراحليـن فى طلب العلم وكتابة حديث رسول الله ﷺ أربعة أجتمعوا فى رحلة وهم :

– محمد بن جرير الطبرى .

– ومحمد بن إسحاق بن خزيمة .

– ومحمد نصر المروزى .

– ومحمد بن هارون الرويانى .

وكـان مقصـدهم مصـر ، فلمـا وصلوا انشـغلوا فى طلب العلم حتى ألمت بهـم الحـاجـة ولـم يبق عندهـم مـا يقـوتـهم ، وأضـر بهـم الجـوع ! ، فـاجتـمعوا لـيلة فى منزل كـانوا يأوون إليه يـكتبـون فيه الحـديث ، فـاتفق رأيهـم أن يستهـموا ويضربوا بينهم قرعـة ، فمن خرجت عليه القرعة سأل

لأصحابه الطعام ! ، فخرجت القرعة على محمد بن إسحاق بن خزيمة، فقال لأصحابه :

– أمهلونى حتى أتوضأ وأصلى صلاة الخِيرة [1] .

فتوضأ ثم دخل فى صلاة ركعتى الاستخارة فى خشوع ورجاء .. وإذا بالباب يدق ! ففتحوا فإذا برجل ينزل من على دابته ويقول :

– أيكم محمد بن نصر ؟

فقالوا فى دهشه :

– هو هذا !

فأخرج الرجل صرة فيها خمسون ديناراً فدفعها إليه ، ثم قال :

– أيكم محمد بن إسحاق بن خزيمة ؟

فقالوا والدهشة المشوبة بالسرور تدفعهم للإجابة :

– هو هذا الذى يصلى ! ..

وكان قد أوشك على الفراغ من صلاته ودعائه لدعاء الإستخارة ، فدفع إليه الرجل صُرَّة فيها خمسون ديناراً !! .. ثم قال :

– أيكم محمد بن هارون ؟

وفعل به كذلك ، وكذلك فعل بمحمد بن جرير الطبرى .. ثم قال :

– إن الأمير كان قائلاً بالأمس [2] فرأى فى المنام خيالاً قال له : إن

(١) يقصد صلاة الاستخارة .

(٢) أي نائما نوم القيلولة وقت الظهير (بين الظهر والعصر) .

المحامد [1] طووا كشحمهم جياعا فانفذ إليهم هذه الصُّرر .. وأقسم عليكم إذا نفدت فعرِّفوني ..

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ＊ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ [2] .

★ ★ ★

(١) جمع محمد ، فالعلماء الأربعة اسمهم « محمد » .

(٢) الطلاق : ٢-٣ .

دين حسب الطلب !!

كان هناك رجل نصرانىّ ذا مكانة وأموال ، وكان رجلاً عاقلاً أريباً ذكياً ذا بديهة حاضرة وسرعة خاطر وذكاء فطرى ، وكان يعيش سعيداً مع أسرته ولا يُقْلق باله إلا تلك المتناقضات التى تحفل بها كتبه الدينية والتى تتردد على ألسنة رجال الدين دون إعمال عقل ولا وزن كلمات ولا ترابط معانى ، وخاصة فى القضايا الكبرى منها . .

ظل هذا الرجل يعيش ولا يؤرقه شئ إلا هذه المسائل الجوهرية عن الكون والحياة والإنسان والحكمة والإرادة ، وكلما تصفح كتبه لم يزدد إلا قلقاً واضطراباً ، حتى نحاها جانباً . .

وكان أحياناً يدخل فى حوار مع ولده ، فلا يجد عنده إلا التكرار لإجابات هو يعلم تماماً مدى زيفها وبطلانها . .

حتى جاء يوم زاره فيه رجل مثقف مسلم فتطرق الحديث بينهما إلى مسائل الإيمان والتصور العام للإنسان وحياته ، وكأنما اكتشف الرجل وابنه كنزاً فاقتنى عدة كتب أرشده إليها المثقف المسلم ، وبدا وكأنه سوف يدخل فى الإسلام .

وفى هذا الوقت كانت زوجة هذا الرجل حزينة لما كان يصيب زوجها من نوبات حزن وضيق ، فلما لاحظت التغير الذى طرأ عليه وعكوفه على قراءة كتب عن الإسلام شعرت بشعور متناقض : فهى من

ناحية مستريحة ومسرورة لذهاب هَمٍّ زوجها ، وقلِقة عليه وعلى ولدها معاً . .

دخل الرجل فى نقاش معها ، وكذلك العديد من أقاربه وأصدقائه الذين نقلوا فحوى المناقشات إلى رجال الدين فى ملته ، فاتصلوا به سريعاً وقالوا له :

– أتريد حقاً أن تترك دينك ودين آبائك ؟

قال الرجل بصراحة تقويها أمواله ومكانته ونفوذه :

– نعم ! . .

فسألوه :

– ولم ؟ أهناك خير من دينك ؟ ما الذى لا يعجبك فيه ؟

قال :

– الكتاب المقدس نفسه بقسميه القديم والجديد ملآن بأشياء لا تعجبنى ! . .

قالوا له :

– لا تقل هذا الكلام ، إنك تتحدث عن كلام ربنا المقدس .

قال فى إصرار وتحدى :

– كلا !كلام ربنا ليس فيه أخطاء !! . .

قالوا :

– أى أخطاء تقصد ، أهناك صفحات بعينها ..

قال الرجل :

– نعم .. صفحة كذا فيها كذا .

قالوا موافقين :

– نمحوها ..

قال :

– وصفحة كذا فيها كذا ..

قالوا :

– نمحوها ..

قال الرجل وقد أغضبه هذا الاستهتار :

– تعالوا معى سوف أريكم شيئاً ..

وأخذهم إلى قارئ مسلم للقرآن الكريم فقير ، وقال للقارئ الفقير:

– لو سمحت اقرأ لنا سورة مريم ..

فتعجب القارئ وقد توجس خيفة من دخولهم عليه وطلبهم هذا الطلب وقال :

– ولماذا سورة مريم بالذات ؟ !

قال الرجل مبتسما له ومطمئناً :

– اقرأ ، فنحن نريد أن نعرف ماذا قال القرآن عن مريم .

فبدأ القارئ الفقير يقرأ حتى وصل إلى قوله تعالى :

﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾ [1] .

وهنا قاطعة الرجل قائلاً :

– هذه الآية لا تعجبنى ! ..

فرد القارئ مستنكراً :

– وماذا يعنى هذا ؟ !!

قال الرجل فى رجاء :

– امحها ونعطيك خمسين ألف جنيه ..

فقام القارئ الفقير وقد احمر وجهه غضباً وصاح فى الرجل :

– اخرج من هنا يا ابن الـ ...

فخرج الرجل ومن معه من رجال الدين وقال لهم بعد أن ابتعدوا عن المكان :

– أرأيتم الفرق ؟ .. لن أرضى عن الإسلام بديلاً :

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله !!

★ ★ ★

---

(١) مريم : ٣٤ .

جــلاء الأحــزان

جلس قارئ القرآن حزيناً مهموماً ، وبعد أن ختم ورد التلاوة وورد مراجعة الحفظ باستظهاره ، أخذ يفكر فى ديون لزمته وهموم معيشته ونقص فى المال والثمرات حتى غلبه النوم فنام . .

وبينما هو نائم إذا رأى فيما يرى النائم رجلاً يسأله فى رفق :

– مالك يا شيخ ؟

قال صاحبنا :

– هموم لزمتنى وديون أثقلتنى . .

قال الرجل :

– أتنزل لنا عن سورة البقرة ونعطيك مائة ألف دينار ؟

فردَّ صاحبنا فزعاً :

– كلا !! . .

قال الرجل :

– أتنزل لنا عن سورة آل عمران ونعطيك بدلا منها مائة ألف دينار؟

قال صاحبنا بعناد :

– كلا !

وكرر الرجل ذلك حتى انتهى إلى سورة الناس ، وصاحبنا لا يردُّ إلا بردٍ واحدٍ ثابت هو الرفض . .

فقال له الرجل معاتباً :

– معك كل هذا الخير ثم تحزن ؟!! عَلاَمَ تحزن ؟!

★ ★ ★

ميّت يبرُّ أمَّه !!

ذو القرنين عبد صالح مَكَّنَ الله تعالى له فى الأرض وآتاه من كل شئ سببا ، فكان نعم العبد الصالح العامل الآخذ بهذه الأسباب من أجل الصالح العام ، فكم قام بمشروعات ضخمة مستخدماً الأسباب التى أنعم الله بها عليه : علماً وقدره وخبرة وفراسة وعقلاً وفكراً . . . !! يقول الله تعالى : ﴿ ويسألونك عن ذى القرنين ، قل سأتلوا عليكم منه ذكرا، إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شئ سببا ، فأتبع سببا ﴾[1] .

قضى ذو القرنين حياته فى جهد وعمل دائب مثمر من أجل نفع وفائدة الإنسان فى كل أنحاء الأرض فى مطلع الشمس وفى مغاربها ، فحكم فى مغرب الشمس بين الناس فكان نعم الحاكم :

– قال : « أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً . وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى ، وسنقول له من زمرنا يسرا »[2] .

هذه هى أبرز أعماله للناس فى مغرب الشمس ، أما أبرز أعماله للقوم المقيمين عند مطلع الشمس فهو هذا السد الحديدى الضخم

---

(١) الكهف : ٨٣ – ٨٥ .

(٢) الكهف : ٨٧ – ٨٨ .

الذى أقامه لإنقاذ الإنسانية من خطر يأچوچ ومأچوچ . .

وفى أواخر حياته مَرِضَ مرضاً شديداً وكان بأرض بابل بالعراق ، وشعر بدنوِّ أجله ، ولما كان يعلم حب أمه الشديد له ، وإشفاقه عليها من ألم فراقه ، وتخفيفاً لأحزانها لموته ، وتسلية لها فى مصيبتها فيه ، وكان باراً بها فى حياته فأراد أن يُبرَّها وهو ميِّت !! فأرسل إليها رسالة يقول فيها :

– يا أماه ! اصنعى طعاماً واجمعى من قدرت عليه ، ولا يأكل طعامك مَنْ أُصيب بمصيبة . . واعلمى : هل وجدت لشئ قراراً باقيا وخيالاً دائماً ! . . إنى علمت يقيناً أن الذى أذهب إليه خير من مكانى !! . .

فلما وصلت رسالته إلى أمه صنعت الطعام وجمعت الناس جمعاً غفيرا ، داعية إياهم على هذا الطعام ثم أسمعتهم قائلة شرط ولدها :

– لا يأكل من هذا الطعام من أصيب بمصيبة ! . .

فلم يأكل أحد . . فعلمت ما أراد ، فقالت تحدث نفسها :

– من يبلغك عنى أنك وعظتنى فاتعظت ، وعزَّيْتنى فتعزَّيت ، فعليك السلام حيًّا وميِّتاً [1] !! ثم طلبت من الناس أن يأكلوا واهبة ثواب الإطعام لولدها البار . .



(١) الرياض الندية في الخطب المنبرية بتصرف شديد .

جنـازة عجيبـة!!

العبـاس بن عبـد المطلب هو عم رسـول الله ﷺ، وعبـد الله هو ابن عمه، ولد قبل الهجرة بثلاثة سنين، وكـان ﷺ يحبه ويدعو له وهو طفل صغير..

كان ﷺ يمسح رأسه وهو يدعو له قائلاً:

- «اللهم بارك فيه، وانشر منه، واجعله من عبادك الصالحين»

- «اللهم علمه الحكمة وتأويل القرآن»

وفى رواية: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل»

- «اللهم زده علمًا وفقهًا»...(١)

وقد استجاب الله تعالى دعاء نبيه محمد ﷺ، فكان عبد الله نعم العبد الصالح والعالم البحر والفقيه الإمام .. وكيف لا وهو من لازم النبى ﷺ وتربى على يديه رأى الوحى ينزل عليه رأى العين!..

فعن مجاهد أن ابن عباس قال: (رأيت جبريل عند النبى ﷺ مرتين، ودعا لى رسول الله ﷺ بالحكمة مرتين)

وعن مسروق أن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: (نعم ترجمان القرآن ابن عباس)

---

(١) كلها أحاديث في الصحاح.

وكان مسروق يقول عنه: (كنت إذا رأيت عبد الله بن عباس قلت: أجمل الناس! فإذا تكلم قلت: أفصح الناس! وإذا حدَّث قلت: أعلم الناس!)

وقال شقيق: (خطبنا ابن عباس وهو على الموسم[1] فافتتح سورة النور، فجعل يقرأ ويفسر، فجعلت أقول: ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله! ولو سَمِعَتْهُ فارس والروم والترك لأسلمت!!)

وقال عمر بن دينار: (ما رأيت مجلسًا أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس: الحلال والحرام والعربية والأنساب والشعر)

وكان عبد الله بن عباس عالمًا مجاهدًا كعلماء جيله، لم يشهد مع رسول الله ﷺ موقعة واحدة؛ لأنه ﷺ مات وعبد الله ابن ثلاث عشرة سنة، إلا أنه شهد مع الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وقعة: الجمل وصِفِّين والنهروان، وشهد مع الإمامين الحسن والحسين، ومحمد بنوه[2]، وعبد الله وقثم ابنا العباس، ومحمد وعبد الله وعون بنو جعفر بن أبى طالب، والمغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعُقَيْل ابن أبى طالب، وعبد الله بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب..

كل هذه معارك خاضها، ورغم كل هذا لم تشغله عن تحصيل العلم وتبليغه، فلا القلم طغا على السيف، ولا السيف حل محل القلم!..

وهكذا عاش العالم العلامة المجاهد حياة مليئة بالمعارك على كل المستويات والجوانب حتى مات بالطائف سنة ثمان وستين من الهجرة

(١) يقصد الحج.

(٢) الإمام محمد بن الحنيفة أخو الإمامين غير شقيق.

فى أيام الزبير بن العوام وهو ابن سبعين سنة..

وهكذا ولد وهو محصور فى شعب أبى طالب، ومات وهو محصور فى الطائف! وقد صلى عليه محمد بن الحنيفة وقال عنه يوم مات:

- اليوم مات رَبّانيّ هذه الأمة.

وقد ظهرت فى جنازته أشياء عجيبة رواها جمع غفير ممن شهدها، ووصلت إلينا أنباؤها من طرق صحيحة قوية ومن أكثر من مصدر..

فقد روى الحاكم والطبرانى بأسانيد صحيحة قالا:

- مات ابن عباس رضى الله عنهما بالطائف فشهدت جنازته طير لم يُرَ على خلقته ودخل فى نعشه، فنظرنا وتأملناه: هل يخرج؟، فلم يُرَ أنه خرج من نعشه، فلما دُفِن تُليَت هذه الآية على شفير القبر ولا يُدْرَى من تلاها:

﴿يا أيتها النفس المطمئنة. ارجعى إلى ربك راضية مرضية﴾[1]

وهو ما أكده الزبير بعد أن وصلته أخبار الجنازه من الطائف وهو بمكه فى قوله:

- مات ابن عباس بالطائف، فجاء طائر أبيض فدخل فى نعشه حين حُمِل فما رؤى خارجًا منه..[2]

رحم الله عبد الله بن عباس (أبا العباس) ورضى عنه وأرضاه.

---

(١) سورة الفجر: ٢٧-٢٨ . والحاكم جـ٣ ص٥٤٣، والطبراني قال الهيثمي عن رجاله: رجاله رجال الصحيح.

(٢) راجع: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر. رقم ١٥٨٨ جـ٣ ص٩٣٣ .

ورثة الأنبياء

العلماء هم ورثة الأنبياء فى واجباتهم وتكليفاتهم من حَمْل مهام الدعوة وتبليغها للناس وما يتعلق بهذا من تبشير وتنذير، وترغيب وترهيب، ووعد ووعيد وتعليم وتلاوة آيات الله وتزكية وإرشاد وأمر بمعروف ونهى عن منكر وتحليل للطيبات وتحريم للخبائث وحث على الخير وتنفير من الشر.... إلخ.

هذه هى مهمة ورثة الأنبياء...

وهكذا كان العلماء المجاهدون عبر التاريخ الإسلامى الحافل المشرف..

ومن هؤلاء الشيخ عبد الحميد الجزائرى فى سوريا أثناء الاستعمار العسكرى الفرنسى، ولما كان الصراع قائمًا بين الحق والباطل، ولما كان الباطل دائمًا يعتبر الحق إفسادًا! فقد رأى المندوب «السامى!» الفرنسى فى قيام الشيخ عبد الحميد بواجباته المكلف بها من قِبَل الله تعالى والذى سوف يحاسبه عليها. إفسادًا وإزعاجًا... ولما كان أولياء الشيطان دائمًا مغرورين، فقد استدعى المندوب الفرنسى الشيخ إلى مكتبه تحت حراسة الجنود وقال له فى تكبر وصلف وتهديد:

- إما أن تُقْلِع عن تلقين تلاميذك هذه الأفكار أو أُرْسِل جنودًا لإغلاق المسجد الذى تنفث فيه هذه السموم ضدنا وأخمد أصواتكم المنكرة!

فردَّ عليه الشيخ الوقور فى هدوء:

- أيها المسيو الحاكم! إنك لا تستطيع ذلك[1].

فوجئ المندوب الفرنسى بالرد فاستشاط غضبًا وحاول أن يتحكم فى نفسه وقال وقد سيطر على تعبيرات وجهه:

- كيف لا أستطيع؟

قال الشيخ بنفس الهدوء:

- إذا كنت فى عُرسٍ علّمتُ المحتفلين! وإذا كنت فى مأتم وعظتُ المعَّزين! وإن جلستُ فى قطار تحدَّثتُ مع المسافرين! وإن دخلتُ السجن أرشدتُ المسجونين! وإن قتلتمونى التهبت مشاعر المواطنين.. فخير لك أيها المسيو أن لا تتعرض لهذه الأُمَّة فى دينها ولسانها.

★ ★ ★

(١) يقصد لا تستطيع إخماد أصواتنا.

ديك كريم!!

جاء عيد الأضحى على إبراهيم بن مزيد وليس عنده شئ يضحى به ، إلا ديكًا كان يوقظه بالسَّحَر وكان عزيزاً عليه، قريبًا إلى قلبه، حبيبًا إلى نفسه، إلا أنه لم يجد مفرًّا أو بديلاً عن التضحية به، فأمر زوجه بذبحه واتخاذ طعام منه، وخرج إلى المصلَّى ليُصلِّيَ صلاة العيد . .

همَّت امرأته بالإمساك بالديك، إلا أنه فرَّ منها، فتبعته، فطار إلى السطح، فما زالت تتبعه، فطار إلى سطح الجيران وهى تتبعه، فصار يطير من سطح إلى سطح -وكان جيرانها من بنى هاشم- فطلعوا إلى سطوحهم يعاونونها على الإمساك به، وسألوها عن سبب مطاردتها للديك، فقال بتحسر :

- لكى نذبحه . .

فسألوها :

- أليس عندكم شاة أو كبشًا أو بَدَنَة؟!

فقالت المرأة فى خجل :

- تعلمون مكانة الديك من نفس أبى إسحاق، ولو كان عنده غيره لذبحه .

فقالوا :

- ما نرضى أن يبلغ الاضطرار بأبى إسحاق إلى هذا القَدْر..

وجعل كل دار يرسل إليه، هذا شاة، وهذا شاتين، وهذا بقرة، وهذا كبشاً.. حتى امتلأت الدار.

فلما جاء إبراهيم ورأى ذلك قال لزوجته متعجبًا:

- ما هذا؟!

فقصَّت المرأة عليه القصة، فقال مغتبطًا:

- والله إن هذا الديك لكريم على الله، فإن إسماعيل نبى الله فُدِىَ بكبش واحد، وهذا فُدِىَ بما أرى[1]!!.

★ ★ ★

(١) المستطرف: ص ٣٦٣ .

وليمة قندهارية!

تعارف تاجران أفغانيان عن طريق التعامل وعقد الصفقات، حيث كان أحدهما من العاصمة «كابل» وكان قصيراً وسميناً وبه شئ من التكلف لكنك لا تملك إلا أن تحبه لما يتميز به من طيبة ظاهرة ودماثة خلق وإبتسامة عريضة رغم عصبيته الخفيفة . . .

والتاجر الثانى كان من مدينة «قندهار» وهى مدينة أفغانية كبيرة، وكان هذا الرجل ربعة متوسط الطول فى قوامه اعتدال وحُسن هيئة لكنه لا يَقِلُّ طيبة عن التاجر الأول مع تلقائية فى التعامل وعدم تكلُّف، ولا تملك أيضاً إلا أن تحبه!، فهو هادئ الطباع عقلانى يسير فى تعاملاته سيراً سهلاً لا وعراً . . .

استراح التاجران كل منهما لتعامل الآخر لاه لتقائهما على الأمانة والانضباط فتطورت العلاقة التجارية إلى صداقة شخصية، وتطورت الصداقة إلى أخوة فى الله تعالى وتآلف أرواح رغم أن كلاً منهما لم يدخل بيت الآخر فى زيارة أو دعوة أو مناسبة. . . .

وفى إحدى الاتصالات أخبر القندهارى أخاه الكابلى أنه سوف يؤدى فريضة الحج هذا العام، فسارع الكابلى إلى إظهار رغبته هو الآخر فى مرافقة صديقة، وكانت مناسبة للالتقاء والصحبة والمعايشة وثَّقت الصلة بين الأخوين وكشفت لكل منهما ما يُكِنُّ له صاحبه من حب ووُدٍّ وإيثار . . .

كانت رحلة الحج هذه بمثابة الشحنة القوية لهذه العلاقة النادرة بين الصديقين الوفيين الأمينين، فقد جعلت كلا منهما لا يستطيع فراق الآخر طرفة عين، ولكن بُعد البلدين وارتباط الأسرة والعمل عوامل تَحُول دون هذا التلاقى اليومى فى مسجد واحد أو فى بيت واحد ...

فما كان منهما إلا أن تواعدا على تبادل الزيارات كل فترة، وبادر الصديق الكابلى إلى دعوة صديقة القندهارى إلى زيارته فى كابل ..

وفى أحد الآيام كان للقنداهارى أعمال فى كابل فلما انتهى منها ذهب لزيارة صديقه الكابلى تلبية لدعوتة واطمئناناً على أحواله وشوقاً إليه .... فلما رآه صديقه الكابلى قام من مجلسه فى المتجر واعتنقه ورحب به ترحيباً كبيراً، وكان يجلس معه أحد التجار لعقد صفقة، فاعتذر له الكابلى بلباقة طالباً تأجيلها إلى يوم آخر، وأغلق متجره بسرعه وأخذ بيد صديقه القندهارى إلى البيت ليقوم معه بواجب الضيافة، وبالغ فى إكرامه، فبدلاً من أن يجلسه فى حجرة المسافرين آثره بحجرة نومه الخاصة ونقل زوجته إلى حجرة المسافرين، وبدلاً من أن يُعدَّله وجبة طعام، أقام وليمة ضخمة أعد لها أصنافاً من الطعام والشراب والفاكهة يصعب إحصاؤها ودعا إليها كبار التجار والأغنياء...

كان هذا فى طعام الغداء! ... وقد أحسَّ القندهارى بالحرج لكنه ظن أن هذا فى أول الاستقبال فقط، لكن صديقة الكابلي مكث معه إلى الليل وقدَّم له فى العشاء مثل الغداء واستمر فى زفة الترحيب المبالغ فيها: يصب الماء له، ويدخله الحمام، ويقترح عليه أن يطلب أى شئ

يريده . . . كل هذا والقندهارى مشفق على أخيه الكابلى من هذا الجهد، ومحرج أشد الحرج من مشاعر الضيق التى بدأت تنتاب أهل بيته بسبب إعداد كل هذه الأصناف من الطعام والتضييق عليهم فى حركتهم ونومهم . . .

ولما انتهى هذا اليوم الحافل سأل الكابلى صديقة قائلاً :

– لعل الولائم تكون أعجبيتك ؟. . . .

فقال القندهارى وعلى وجهه علامات الجد :

– إن ولائمك متميزة جداً، ولكنها ليست قندهارية! . . .

فعزم الكابلى أن يحشد له فى اليوم التالى أصنافاً أكثر من الطعام ودعا كبار المسؤولين فيها وهو لا يفارق صديقه القندهارى إلا لحظات

وفى نهاية اليوم سأل الكابلى صديقة قائلاً :

– لعل الولائم اليوم تكون أعجبتك؟!

فقال له القندهارى وعلى وجهه نفس علامات الجد ونظرة خفية من الحرج والإنكار :

– لا شك أنها ولائم متميزة، لكنها ليست قندهارية !! . .

فعزم الكابلى على استيراد أطعمة من خارج البلاد ودعوة الوزراء والمشهورين حتى يرضى صديقة القندهارى، لكن صديقه أصرَّ على قوله:

- إنها ولائم ممتازه، لكنها ليست قندهارية !!

وعزم القندهارى على العودة إلى بلدة «قندهار» فطلب منه صديقه الكابلي أن يبقى معه أياماً أخرى ليريه ولائم أحسن، إلا أن الصديق القندهارى أصر على العودة متعللاً بارتباطات وأعمال لا يستطيع تأجيلها، فقال له الكابلى:

- سأزورك وشيكاً فى قندهار لأرى الوليمةْ القندهارية؟!

وهو يمنى نفسه بحلم مذهل يتجاوز حدود الخيال !!

ولم يتأخر الصديق الكابلى فى الزيارة المرتقبه، ولم تكن زيارة تفقد وسؤال بقدر ما كانت زيارة استطلاع وتشوف ...

وجد الصديق الكابلى أخاه القندهارى فى متجره كعادته،فقابله القندهارى كأحسن ما يكون الاستقبال بحفاوة وتكريم بالغين ثم أجلسه إلى جواره ريثما ينتهى من صفقة يعقدها .. ثم التفت إليه بعد إتمام الصفقة سائلاً عن أحواله وعن أسرته وأولاده واستأذنه ليتم بعض الأعمال بين يديه، وحين أُذِّن لصلاة الظهر - وقت إغلاق المتجر للغداء - قام بصحبة الزائر الكريم وأغلق المتجر ، متوجهاً معاً إلى المسجد لأداء الصلاة ثم اصطحبه معه إلى منزله، فأنزله في حجرة الضيوف المسافرون، وأمر أهله أن يعدوا طعاماً للغداء هو وضيفه، والكابلى غير مصدق، لأنه تعامل مع صديقه القندهارى ويعرف مدى أمانته فى القول قبل المال، ولكنه التمس لأخيه عذراً لمفاجأة الزيارة، وقال فى نفسه :

- لعله يُعِدُّ لها فى العشاء! . .

لكن صاحبه القندهاري استأذن منه فى العودة إلى المتجر بعد العصر وهو موعده اليومى قائلاً له :

- كن على راحتك، كأنك فى بيتك، إن شئت رافقتنى إلى المتجر، وإن شئت استرحت من عناء السفر .

ففضل الكابلى مرافقة صديقه الحميم إلى المتجر، وهو بين معجب ومتعجب! بين راضٍ ومستنكر !! فلما جاء وقت العشاء لم يكن يَفْضُل الغذاء كثيراً، بل كان عشاءاً خفيفاً بسيطاً مفيداً وتكرر ما حدث فى اليومين التاليين، فلم يتمالك الكابلى نفسه وسأل صديقه القندهارى :

- متى موعد الوليمة القندهارية ؟!!

فابتسم القندهارى ابتسامته الهادئة ولكنها كانت أكثر اتساعاً من كل ابتساماته وقال :

- يا صاحبى ! كل يوم فى كل وجبه من وجبات الطعام تُقَدَّم لك وليمة قندهارية، إن ولائمك بقدر فخامتها وترفها وتكاليفها وما تكبدته فيها من مال ،جهد، وما بذله أهلك فيها من مشقة وتعب كلفتنى الحرج والإشفاق عليك وعلى أهلك مثلها وأكثر، وكلفتنى من وقتى وأعمالى الكثير، فقد كنت أنوى أن أبقى عندك فترة أخرى ولكننى أشفقت عليك وعلى أهلك فقطعت زيارتى . . . وأنا حين قلت لك : إن ولائمك ليست قندهارية، كنت أقصد افتقادها للبساطة

وعدم التكلف وإشعار الضيف بالعنت والإملال الذى يشعر به أهل بيتك . . . إننا فى قندهار لا نتكلف لضيفنا . . . فإذا جلس معنا ثلاثة أيام أو ثلاثة أشهر أو ثلاث سنين فلن يكلفنا شيئاً ولن يشعر أحد من الضيف بتعب ولا إملال، وإننى حين أقدم لك ما أقدمه لأهلى من طعام فقد رفعت أُخُوَّتَك إلى منزلة الولد والوالد والوالدة والزوج . . .

كل هذا والكابلى ينصت مبتسماً بين مُعْجَب بمنطق الرجل الصحيح ومتعجب من نفسه وسلوكه السابق حين أسرف فى ضيافة هذا الرجل العاقل وتذكر أنه شعر حين رحل عنه القندهارى بشئ من الراحة !! وحدث نفسه قائلاً فى إعجاب وغبطة وتفكير عميق :

– تلك إذن الوليمة القندهارية !![1] . . فعلاً هناك فرق بين الكرم والإسراف .

★ ★ ★

١- بتصرف من كتاب تدابير القدر .

اخطب لبنتك

جلس سعيد بن المسيب ذلك الشيخ المهيب يفكر فى أمر الطلب الذى أرسله إليه عبد الملك بن مروان خليفة بنى أمية لخطبة أبنته الشابه الجميلة لابنه ولى العهد «الوليد بن عبد الملك» وقد أهمه هذا الأمر أشد أهتمام ... كيف يخرج من هذا المأزق؟ وكيف يردُّ طلباً للحاكم؟ إنه يخاف على ابنته من زخرف القصور وفتنة السلطة وترف المترفين قتلة الإمام الحسين ومغتصبى السلطة من الخليفة الشرعى عَلِىٍّ ابن أبى طالب رضى الله عنه ... كيف يدخل ابنته قصر هؤلاء القوم وهو يرى بعينيه ظلمهم وجورهم وبطشهم واستكبارهم؟ .

إن المسألة لا شك شائكة، وسوف يجعل الله تعالى- لا شك - له مخرجاً، فليغدو إلى المسجد كعادته كل يوم منذ أربعين سنة ليلقى دروس العلم على طلبته ويَؤُمّ الناس فى الصلاة، ويتفقد أحوال إخوانه من المسلمين ...

ذهب سعيد رضى الله عنه إلى المسجد وبعد الصلاة التفت إلى المصلين مستغفراً ونظر إليهم فإذا بتلميذه وداعة أمامه فسأله :

- أين كنت غائباً منذ أيام ؟

قال وداعة - وكان شاباً وديعاً كاسمه :

- توفيت أهلى فاشتغلت بها .

قال الشيخ :

– هلا أخبرتنا فشهدناها ؟!

فاعتذر وداعة له بلطف قائلاً :

– خِفْتُ أن أشغلك، وقد كان الأمر مفاجئاً وسريعاً ثم أراد وداعة أن يقوم، فطرأ على الشيخ خاطراً فقال له :

– هل استحدثت امرأة ؟

قال وداعة وقد ارتسمت على وجهه شبه ابتسامة :

– يرحمك الله ! ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟!

فقال الشيخ وقد حسم أمره :

– أنا !

قال وداعة وهو غير مصدق :

– أَوَ تفعل ؟!

قال الشيخ فى ثبات :

– نعم!

ثم حمد الله وصلي على النبى صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته وداعة على ثلاثة دراهم فى المسجد وهم جالسون والشهود هم إخوانهم الذين أعلنوا فرحتهم بهذا الزواج المفاجئ ! ..

كان هذا العقد بعد العصر ، فقام وداعة ومايدرى ماذا يصنع من الفرح ؟! ... فسار إلى منزله وهو على حيرته يتفكر ممن يأخذ؟ ! وممن يستدين ؟!.. ثم ذهب المسجد فصلي المغرب وكان صائماً فعاد إلى منزله وكان وحده فأعد إفطاره وكان خبزاً وزيتاً، وما كاد يضع الطعام أمامه حتى سمع باب المنزل يُقْرَع فقال :

– من هذا ؟

قال الطارق :

– سعيد

ففكر وداعة في كل إنسان إسمه سعيد إلا الشيخ الجليل المهيب سعيد بن المسيب، فإنه لم يُرَ منذ أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد، فقام وداعة وفتح الباب فإذا سعيد بن المسيب نفسه أمامه، ففوجئ وداعة وصمت للحظات ثم انتبه لنفسه وظن أن أستاذه قد بدا له وغير رأيه فقال متحرجاً:

– يا أبا محمد هلا أرسلت إلى فآتيك؟

قال الشيخ بتواضع جَمٍّ :

– لأنت أحق أن تُؤْتى!

قال وداعة فى أدب:

– فما تأمر ؟

قال الشيخ موضحاً الأمر على حقيقته :

– إنك كنت رجلاً عَزَباً فتزوجت، فكرهت أن تبيت الليله وحدك، وهذه امرأتك! . . .

فطار قلب الشاب فرحاً، فقد كانت العروس تقف خلف أبيها فى طوله، وتوقف لسانه عن النطق وظن أنه يحلم حلماً لا يريد أن يفيق منه، بل إنها رؤيا صالحة قد يكون تأويلها حسناً وهو يرى الأستاذ يأخذ بيد ابنته ويقدمها إلى الباب الواقف عليه وداعه لا يعرف كيف يتصرف!!! . . . فلما رأى الشيخ هذا السكون دفع العروس برفق إلى داخل الباب وأغلق الباب وانطلق، فسقطت العروس من الحياء!!!

انتبه وداعة بعد إغلاقه الباب فاستوثق من تمام إغلاقه من الداخل، وسارع الى القصعة التى بها الخبز المكسور والزيت فأخفاها فى ظل السراج كى لا تراه العروس فتظن به الظنون!!.. ثم صعد إلى السطح فرمى حصيات عندالجيران ينبههم فجاءوه وسألوه :

– ما شأنك؟

قال وقد علت ابتسامة الفرحة وجهه :

– وَيْحَكُم! زوَّجَنى سعيد بن المسيب ابنته اليوم وقد جاء بها على غفلة!! .. فقالوا بشك غير مصدقين :

– سعيد بن المسيب زوَّجَكَ ؟!

قال الشاب مؤكداً :

– نعم !.. وها هى فى الدار .

لم يصدق الجيران كلمات وداعة فأرادوا أن يتأكدوا، فنزلوا من عنده الى العروس!! فانطلقت الزغاريد وأمدُّوه بالأسرجة وأعدوا له وليمة، وبعثوا إلى أُمِّه لإبالغها فجاءت مسرعة وهى غير مصدقه الخبر، وقالت وقد رأت العروس والفرحة تكاد تذهب بعقلها:

– وجهى من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام... فبرَّ وداعة قسم أمه وانتظر ثلاثة أيام ثم دخل بها، فمكث شهراً، لا يأتى أستاذه ولا يأتيه، فلما كاد الشهر يكتمل ذهب التلميذ إلى أستاذه وهو يُدرِّس فى حلقته فى المسجد فسلم عليه فردَّ الأستاذ السلام ولم يُكَلِّمْه حتى انتهى الدرس وذهب طلبة العلم فلم يبق غير وداعة والأستاذ، فسأله:

– ما حال ذلك الإنسان ؟!

قال وداعة فى أدب :

– خيراً يا أبا محمد، على ما يحب الصديق ويكره العدو ! ...

قال الأستاذ فى وُدٍّ ظاهر وابتسامة عذبة :

– إن رابك شئ فالعصا ...

وانصرف وداعة الى منزله كأسعد ما يكون إنسان، وهو يُحَدِّث نفسه :

– زوجة من أجمل النساء، وهى أحفظ الناس لكتاب الله وأعلمهم بسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعرفهم بحق الزوج... فماذا

أريد بعد ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «خير ما يرزق به عبد بعد تقوى الله من زوجة صالحة»

★ ★ ★

العلاقة الشائكة

العلاقة بين العلماء والحكام علاقة شائكة

فهى أحياناً تكون علاقة نصح وإرشاد، وأحياناً تكون علاقة رقابة وتوجيه، وأحياناً تكون زجر وتوبيخ ..

وتكون أشد ما تكون حساسية مع ظلم الحكام، وقد حل هذه المعادلة الصعبة سيد فقهاء الحجاز عطاء بن أبي رباح ...

لقد كان عالماً مهيباً زاهداً يصفة عثمان بن عطاء الخراسانى بقوله: (انطلقت مع أبى زيد هشام بن عبد الملك، فلما غدونا قريباً من دمشق إذا نحن بشيخ على حمار أسود!

عليه قميص صفيق وجبة بالية وقلنسوة لازقة برأسه وركاباه من الخشب ...).

ثم يَصِفُ مقابلة هشام بن عبد الملك للعالم الجليل على لسان أبيه:

- لما علم هشام أن عطاء بن أبى رباح بالباب بادر فأذن له، ووالله ما دخلت إلا بسببه! فلما رآه هشام قال: مرحباً ،،، مرحباً ،،، هاهنا .... هاهنا !! ..

ولا زال يقول له ذلك حتى أجلسه معه على السرير، ومس بركبته ركبته! وكان فى المجلس أشراف الناس! وكانوا يتحدثون فسكتوا! ثم أقبل عليه هشام وقال:

– ما حاجتك يا أبا محمد؟

قال عطاء فى وقار :

– يا أمير المؤمنين ! أهل الحرمين ... أهل الله وجيران رسوله تقسم عليهم أرزاقهم وأُعْطياتهم .

فقال هشام :

– نعم ! ..

ونادى على الغلام من فوره :

– يا غلام ...أكتب لأهل مكة والمدينة بعطاياهم وأرزاقهم لسنة ! ... ثم وجه كلامه لعطاء سائلاً :

– هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟

قال عطاء بنفس الوقار :

– نعم يا أمير المؤمنين ! أهل الحجاز وأهل نجد، أصل العرب وقادة الإسلام ترد فيهم فضول صدقاتهم ...

قال هشام بسرعة :

– نعم! يا غلام اكتب بأن تُردَّ فيهم فضول صدقاتهم ... ثم وجه حديثه للشيخ الجليل قائلاً بود :

– هل من حاجة غير ذلك يا أبا محمد؟

قال عطاء وقد أنبسطت أساريره :

– نعم يا أميـر المؤمنين ! أهل الثـغور، يـقـفـون فى وجوه عـدوكم، ويقتلون من رام المسلمين بشر . . . تجرى عليهم أرزاقاً تدرها عليهم، فإنهم إن هلكوا ضاعت الثغور . . .

فقال هشام :

– نعم! يا غلام اكتب بحمل أرزاقهم إليهم . . .

ثم وجَّه كلامه للشيخ بنفس الود :

– هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟

قال عطاء وقد بدا عليه الارتياح :

– نعم يا أمير المؤمنين! أهل ذمتكم : لا يكلفون مالايطقون، فإن ما تُجْبونه منهم معونة لكم على عدوكم.

فقال هشام :

– يا غلام اكتب لأهل الذمة بألا يكلفوا مالا يطيقون

وقال بود :

– هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟

قال عطاء بقول لين :

– نعم! اتق الله في نفسك يا أميـر المؤمنين، وأعلم أنك خلقت وحدك، وتحشر وحدك، وتحاسب وحدك... ولا والله ما معك ممن ترى أحداً . . .

فأكبَّ هشام يَنْكُتُ فى الأرض بعود وهو يبكى بدموع دون

صوت، فقام عطاء، فلما صار عند الباب إذا برجل قد تبعه بكيس فيه نقود وقال له:

- إن أمير المؤمنين بعث لك بهذا ...

فقال عطاء بأَنَفَة وشموخ مشيراً بيده :

- هيهات! ﴿ وما أسألكم عليه من أجر، إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾[1]

يقول أبو عثمان : فوالله إنه دخل على الخليفة وخرج من عنده ولم يشرب قطرة ماء! ..

هذا هو عطاء بن أبى رباح نفسه الذى أفتى بعدم إعانة الحاكم الظالم بأى صورة من صور العون ...

قال عبد الله بن الوليد الرصافى : قلت لعطاء بن أبى رباح :

- إن لى أخاً يأخذ بقلمه، وإنما يحسب ما يدخل ويخرج ، وله عيال! ولو ترك ذلك لاحتاج وأدان !!.

فسأله الشيخ :

- من الرأس؟

قال عبد الله مجيباً.

- خالد بن عبد الله القسرى..

وهو حفيد الحجاج بن يوسف الثقفى الظالم وكان ظالماً مثل جده..

١- الشعراء : ١٠٩

قال عطاء فتواه القاطعة :

– أما تقرأ ما قاله العبد الصالح : ﴿ رب بما أنعمت عليَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾[1] فابتلى به ثانية فأعانة الله، فلا يعينهم أخوك فإن الله يعينه ... ثم وجه عطاء كلامه للجميع قائلاً :

– فلا يحل لأحد أن يعين ظالماً، ولا يكتب له، ولا يصحبه ، وأنه لئن فعل شيئاً من ذلك فقد صار معيناً للظالمين .



١– القصص : ١٧ وهى قصة موسى عليه السلام حين وكز المصرى نصرة للعبرانى فقضى عليه، والعبرانى ظالم مجرم، فابتلى به موسى فى صباح اليوم التالى، فاعانة الله بالرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ليخبره بمؤامرة الملأ ضده .

راجع سورة القصص : ١٥ – ٢١ ، وتفسير القرطبى جـ٧ ص ٥١٤٩ ط الغد العربى .

باعث السرور!

هناك أمثال تعرف صحتها بالبداهة، ومن هذه الأمثال المثل القائل:

(الإناء ينضح بما فيه)

فإن كان الإنسان خبيثاً ونفسه مدسوسة وقلبه الذى بين جنبيه مريضاً، فإنه – ولا شك – سيكون مصدراً للهموم والغموم والمنغصات ليس لمن حوله فحسب، وإنما لكل من يحتك بهم ... يحتال لذلك بكل الحيل ناشراً لواء الشر والنكد !! ...

أما إن كان طيب النفس ذكياً ذا قلب سليم مخبت محب، فإنه – ولا شك – سيكون مصدراً للسعادة والسرور والبهجة والاطمئنان والراحة لنفسه ولمن حوله، ولكل من يحتك بهم فى معاملة أو حتى فى لقاء عابر!! ..

وما ينصرف على الأفراد ينصرف على البلاد ...

يقول الله تعالى: ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذى خبث لا يخرج إلا نكدا﴾[1] والإسلام يقدم النماذج الطيبة من البلاد والناس، فالتطبيق السليم للإسلام يخرج (خير أمة)، وكان من هذه الطائفة بطل قصتنا (مورق العجلى) .... تلك الشخصية اللطيفة المتلطفة الباسمة دائماً والحريصة على إدخال السرور والبهجة على نفوس إخوانه ...

---

(١) الأعراف: ٥٨.

وكان « مورق » يحتال لذلك من الحيل، ويبذل من المجهود أكثر مما يحتاله المحتالون اليوم للنصب على الناس !! ...

من هذه الحيل أنه كان يضع المال فى يد أحد إخوانه ويقول له :

– أمسك هذه الدراهم حتى أعود إليك ! ...

ثم يتركه فترة وبعدها يرسل إليه من يقول له :

– أنت من هذه الدراهم فى حِلٍّ ... هى لك !![1] ...

★ ★ ★

١– المستطرف للأبشيهى

أضعف الإيمان[1]

كان هناك في مكان ما! وفي زمان ما! .. قد يكون المكان هنا ! أو في الشرق أوفي الغرب أو في الشمال أو في الجنوب !...

وقد يكون الزمان الآن ! أو في الماضي أو في المستقبل !...

كان أهل قرية يعملون بالمعاصي ولا يتوبون ولا يستغفرون، حتى غلبت المعاصي على حياتهم: في حكمهم وفي قضائهم وفي جيشهم وفي اقتصادهم وفي أعمالهم وفي أفراحهم! وفي أحزانهم! وفي قلوبهم! وفي لعبهم ولهوهم! وفي جدهم! وفي تعليمهم! وفي إعلامهم ... وكان في أهل هذه القرية أربعة نفر ينكرون ما يعملون ...

فقام أولهم فقال :

- إنكم تعملون كذا وكذا ...

فجعل ينهاهم ويخبرهم بقبيح ما يصنعون، فجعلوا يردون عليه ولا يرعوون عن أعمالهم، حتى سبهم وسبوه وقاتلهم فغلبوه، فاعتزلهم ثم قال:

- اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني، ولو سببتهم لسبُّوني، ولو قاتلتهم لغلبوني .. ثم ذهب ..

١- القصة من الإحياء للغزالي حكاها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه جـ٢ ص ٢٨٤

فقام الآخر فنهاهم فلم يطيعوه فسبَّهم فسبُّوه ، فاعتزلهم ثم قال :

– اللهم إني قد نهيتهم فلم يطيعوني ، وسببتهم فسبُّوني ، ولو قاتلتهم لغلبوني .. ثم ذهب ..

فقام الثالث فنهاهم فلم يطيعوه، فاعتزلهم ثم قال :

– اللهم إنى قد نهيتهم فلم يطيعونى، ولو سببتهم لسبُّونى، ولو قاتلتهم لغلبونى .. ثم ذهب ..

ثم قام الرابع فقال :

– اللهم إنى لو نهيتهم لعصوني، ولو سببتهم لسبُّونى، ولو قاتلتهم لغلبونى .. ثم ذهب ..

قال ابن مسعود : (كان الرابع أدناهم منزلة وقليل فيكم مثله) !

وصدق ابن مسعود : وقليل فيكم مثله ...

وهذا أضعف الإيمان! ...

★ ★ ★

الرفــق (1)

خرج عبد الله بن محمد بن عائشة من المسجد بعد أن أدَّى صلاة المغرب عائداً إلى بيته، وأثناء الطريق رأى غلاماً من قريش وقد ذهب السُّكْر بعقله وتوازنه فجعل يترنَّح، فارتطم فى تَرنُّحه بامرأة فأمسك بها وجذبها، فاستغاثت المرأه وصاحت، فاجتمع الناس عليه يضربونه!!!..

كل هذه الأحداث وقعت أمام عينى عبد الله فى لحظات، كأنما القدر يجسمها أمامه...

أسرع عبد الله وسط الناس ينظر إلى الغلام المضروب فعرفه، وقال فى نفسه:

– إن أهلك مستورون، فلماذا تفضح نفسك وتفضحهم، وتضيع نفسك وتشينهم!... فالتفت للناس قائلاً:

– تَنَحُّوا عن ابن أخى!...

ثم قال للغلام :

– إلى أين يا ابن أخى؟

فاستحى الغلام، فجاء إليه فضمه إلى نفسه، ثم قال له برفق:

– امض معى!..

(1) القصه حكاها الأبشيهى فى كتابه المستطرف على لسان شاهد عيان رأى الواقعه بعينيه هو محمد بن زكريا الغلابى وعايشها فهى ككل قصص الكتاب حقيقة

فمضى معه حتى صار إلى منزله، فأدخله الدار، وقال لبعض غلمانه:

– بيِّتْهُ عندك فإذا أفاق من سكره فأعلمه بما كان منه ولا تدعه ينصرف حتى تأتينى به ...

فلما أفاق ذكر الخادم له ما جرى، فاستحى الغلام وبكى،وهَمَّ بالانصراف، فقال له الخادم :

– قد أمر الشيخ أن تأتيه..

فأدخله عليه، فقال له ابن عائشة – وكان من مُحَدِّثى عصره المعروفين:

– أما استحييت لنفسك ؟! أما استحييت لشرفك ؟! أما ترى مَنْ وَلَدَك؟ .. فاتق الله وانْزَع عمَّا أنت فيه .

فبكى الغلام منكِّساً رأسه قائلاً والدموع تنساب على وجهه:

– عاهدت الله تعالى عهداً يسألنى عنه يوم القيامة أنى لا أعود لشرب النبيذ ولا لشئ مما كنت فيه وأنا تائب !...

فقال الشيخ وقد رأى صدق توبة الشاب :

ادْنُ منى !..

فقبَّلَ رأسه وقال :

– أحسنت يا بنى !...

فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ويكتب عنه الحديث . . .

وكانت توبة الشاب وهدايته ببركة الرفق، وهو نفس ما فعله الصحابى الجليل أبو الدرداء رضى الله عنه مع شاب أصاب ذنباً والناس يسبُّوه، فنهاهم رضى الله عنه وقال لهم مٌبيِّناً ومُعلِّماً:

– أرأيتم لو وجدتموه فى حفرة، ألم تكونوا مخرجيه منها؟

قالوا:

– بلى!

قال: فلا تسبوه إذن واحمدوا الله الذى عافاكم.

قال الناس:

– ألا تبغضه؟

قال رضى الله عنه:

– إنما أبغض عمله، فإذا تركه فإنه أخى(١) . . .

وصدق القائل (محمد بن زكريا الغلابى) :

– إن الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويكون معروفهم منكراً، فعليكم بالرفق فى جميع أموركم تنالون به ما تطلبون .



١– أقباس روحية

من عمـوم الأمـر بالمعـروف؟!

تبـدو على سـيمـاء الرجل التـقـوى والمروءة، وهو بلحـيتـه المتـوسطة وجـبـهـتـه العـريضـة وبيـاض وجـهـه الناصـع كـأن نوراً يـشع منه، وعـيناه الهادئتان النفاذتان الطيبتـان . . . يجذب الناس إليه . . . ثم بحديثه العاقل ولهجته الصادقة يستمع الناس إليـه ويثقون فيه ويطيعون كلامه . . فقد كـان يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . . إنه يقوم بوظيفة المحتسب المعـيَّن من قِـبَل أميـر البـلاد ورئيـسـهـا، ولكنه لم يكن يعـمـل بطريقـة رسمية، فأبلغت عيون الخليفة قصر الخلافة، فأمر الخليفة بإحضاره! . .

حضر الرجـل وهو ثابت القلب وعلى يقين من عون الله له فى مقابلته للخليفة المأمون . .

كان المأمون جالساً ينظر فى كتاب عن أسماء الله الحسنى، فلـما صار الرجل بين يديه التفت إليه رافعًا رأسه من على صفحات الكتاب ونظر إلى الرجل وقال له :

– إننى بلغنى أنك رأيت نفـسك أهلاً للأمـر بالمعـروف والنهى عن المنكر من غير أن نأمرك . .

وكان المأمون قد غفل عن الكتاب فوقع على الأرض وصار تحت قدمه وهو لا يشعر، لـم يلتفت الرجل إلى كلام المأمون! وقال له منبهاً :

– ارفع قدمك عن أسماء الله تعالى ثم قل ما شئت!

لم يفهم المأمون مراد الرجل، فسأله متعجبًا:

- ماذا تقول؟!

فقال الرجل مقالته الأولى، وسأله المأمون متعجبًا.. كل ذلك ثلاث مرات.. حتى قال الرجل:

- إما رَفَعْتَ أو أَذِنْتَ لى حتى أرفع!!..

فتتبع المأمون نظر الرجل، فوجده ينظر تحت قدميه، فرأى الكتاب فأخذه وقبَّله وخجل.. ثم عاد وقال للرجل:

- لِمَ تأمر بالمعروف وقد جعل الله ذلك إلينا -أهل البيت- نحن الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾[1].

فقال الرجل مصدقًا:

صدقت يا أمير المؤمنين! أنت كما وصفت نفسك من السلطان والتمكُّن، غير أنَّا أعوانك وأولياؤك فيه؛ ولا ينكر ذلك إلا من جهل كتاب الله تعالى وسُنَّة رسول الله ﷺ!! يقول تعالى: ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم﴾[2]، وقال رسول الله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[3].. وقد مُكِّنْتَ فى الأرض وهذا كتاب

(١) الحج: ٤١.

(٢) التوبة: ٧١.

(٣) متفق عليه.

الله وسُنَّة رسوله! فإن انفذت لهما شَكَرْتَ لمن أعانك لحرمتهما، وإن اسْتكبرت عنهما ولم تنفذ لما لزمك منهما فإن الذى إليه أمرُك وبيده عزُّك قادر على تغيير ما أنت فيه، أما قيامى بهذا الأمر فهو ابتغاء الأجر من الله تعالى، وذلك أنه شَرِطَ أن لا يضيع أجر من أحسن عملا . . فقل الآن ما شئت! . .

وكان المأمون قد همَّ بمقاطعته مرات، ولكنه أُعْجِب بكلام الرجل وسُرَّ به، وقال له وعلامات الرضا والبِشْر تنضح من وجهه:

– مثلك يجوز له أن يأمر بالمعروف، فامضِ على ما كنت عليه بأمرنا وعن رأينا!! فاستمر الرجل على ذلك[1] . .



(١) من المستطرف للابشيهي.

من عجائب الأقدار

علم أحد الأمراء بأمر الطفل "أحمد اليتيم" فقد ماتت أمه أثناء ولادته فنالت أجر الشهادة، واستشهد أبوه فى القتال مع جيش المسلمين، فأمر الخليفة بتربيته وضمه إلى أهل بيته؛ فقد كان ابن الشهيدين! . . فأراد أن يخلفهما فيه . .

فلما نشأ ظهرت عليه أمارات النجابة والذكاء، فَسُرَّ الأمير بذلك وزاد اهتمامه به وعُنِىَ بتهذيبه وتعليمه وكان حبيبًا إلى نفسه . . قريبًا إلى قلبه . .

فلما حضرت الأمير الوفاة أوصى به ولىَّ العهد، فلم يكن أقل اهتمامًا أو أضعف عناية، بل قربه إليه وضمه إلى حاشيته واصطفاه، وأخذ عليه العهد أن يكون وفيًا وخادمًا مخلصًا يهتم بشئون القصر ويشرف على كل كبيرة وصغيرة فيه ، فمهمته الإدارة وما يتعلق بها من حل مشكلات وتوزيع اختصاصات وسدٍّ احتياجات . . . .

فلما أثبت أحمد اليتيم جدارته تدرَّج فى وظائفة حتى صار حاكمًا على جميع حاشية الأمير من فرط ثقة الخليفة فيه . .

وأثناء تجول "أحمد اليتيم" فى حجرات القصر لأمر طارئ أوصاه الأمير بسرعة إتمامه فوجئ بجارية من خواص جوارى الأمير فى وضع فاسق مع شاب من الخدم، فصعق للحظات ولم يَدْرِ ماذا يفعل، إلا أن الجارية الفاجرة قامت بسرعة وتوسَّلت إليه، وأعلنت توبتها على يديه!

وبكت وبالغت فى البكاء دون دموع حقيقية.. وأقسمت أغلظ الأيمان، ووعدته أوثق الوعود.. لكن أحمد اليتيم تذكر قسم الإخلاص للأمير، فنازعته نفسه بين التستر على الجارية التائبة وبين البِرِّ بقسمه لوليٍّ نعمته.. فقال لها فى تردد:

– معاذ الله أن أخون الأمير وقد أحسن إلىّ!..

فاستمرت فى توسُّلاتِها بين إظهار للمسكنة والتوبة، واستدرار للرحمة والعطف فلمست فى نفس أحمد اليتيم وترًا حساسًا هو «الحنان والعطف والرحمة».. فانصرف ولم يَعِدْها بشئ، بل علق الأمر على دوام استقامتها وعفافها...

لم تطمئن الجارية الفاجرة لأحمد اليتيم، وأوجست فى نفسها خيفة، وتوهمت أنه سيفشى سرها للأمير، وأن مصيرها لا محالة – إن علم الأمير بأمرها– سيكون وبيلاً، فأسرعت إلى الأمير باكية بكاء الغاضبة، شاكية شكوى المهضوم حقها!! فسألها:

– ما خبرك؟.. كُفِّى عن البكاء وأخبرينى..

فقالت من بين دموعها:

– لقد راودنى أحمد اليتيم عن نفسى، وهددنى بنفوذه فى القصر،وقربه من مولاى وثقتك المطلقة فيه يا مولاى!..

فلما سمع الأمير ذلك استشاط غضبه، واحمر وجهه، ولكنه كتم كل ذلك، وأمرها بالانصراف، فابتسمت فى نفسها، وعلمت أنها نجحت!..

عزم الأمير على قتله فى الخفاء حتى لا يَحْدُث قلق فى القصر ولا فضائح تلوكها الألسن داخل القصر وخارجه، وحتى يحفظ للقصر مهابته وللأمير قدسيته وشموخه وحِماه، فقال لكبير خدمه:

– إذا بعثت إليك أحداً بطبق يطلب منك كذا وكذا فاقطع رأسه وضع الرأس فى الطبق وابعث به مغطى إلىَّ..

وبعد فترة ليست بالقليلة، كانت كافية لنسيان «أحمد اليتيم» الأمر برمته، أحضر الأمير أحمد اليتيم وأعطاه الطبق مغطى وبه الورقة، وأمره أن يذهب بها إلى كبير الخدم ويقول له يعطيك كذا وكذا مما هو مكتوب فى الورقة.

ذهب أحمد اليتْيم قاصداً كبير الخدم، فصادف فى طريقه مشاجرة بين الخدم فلما رأوه صمتوا ثم طلبوا منه الحكم بينهم فقال لهم:

– إنى مُكلَّف بقضاء أمر الأمير.

فقالوا:

– نبعث فلانًا الخادم نائبًا عنك ليحضر ما تطلبه حتى تفصل فى شأننا..

لم يجد أحمد اليتيم مانعًا من ذلك خاصة أن طلب الأمير طلب عادى لا يتطلب ذهابه بنفسه، فأجابهم إلى ما طلبوا، وأعطاهم الطبق، فأرسوا واحداً منهم، فلما ذهب الخادم أخذه رئيس الخدم إلى المكان الذى أعدَّه! ثم قطع رأسه على غرة! ثم وضعها فى الطبق وغطاه وجاء به إلى الأمير، فلما رفع الأمير الغطاء عن الطبق فوجئ برأس الخادم،

فصاح فى المحيطين به:

– أحضروا أحمد اليتيم..

فلما حضر سأله عن ما كلفه به، فأخبره أحمد اليتيم بما حدث، فسأله الأمير:

– أتعرف لهذا الخادم ذنبًا؟

ثم أظهر رأس الخادم، فانعقد لسان أحمد اليتيم برهة ثم قال:

– نعم! الآن أخبرك بما وقع! إنه فعل كذا وكذا مع الجارية فلانة، وقد سألانى بالله أن أكتم الخبر وأنهما سيتوبان ولا يعودان أبداً..

فلما سمع الأمير ذلك أمر بقتل الجارية، وقرب أحمد اليتيم إليه أكثر وتوثقت صلته به، وعرف أن الله تعالى يجازى المحسن الوفى بالإنعام عليه وإنجائه، والمسئ الخائن بمعاقبته وخسرانه..

★ ★ ★

رحـاب التـوبـة

أظلمت الدنيا فى عين الرجل الجبار! فقد وهبه الله صحة ومالاً.. ورغم النعم الكثيرة التى أنعم الله تعالى بها عليه فإنه قد عاث فى الأرض فساداً!!..

إلا أن الدنيا قد ضاقت عليه بما رَحُبَت وضاقت عليه نفسه وأراد أن يتوب الله تعالى عليه ليتوب، وكان الرجل من أتباع موسى عليه السلام قبل ظهور عيسى عليه السلام، فتوجَّه إلى حَبْر من أحبار اليهود وسأله:

– أيها الحَبْر! إن الله ما أمرنى بشئ إلا وخالفته، وما أمرنى باجتناب شئ إلا وفعلته.. فهل لى من توبة!..

فسأله الحبر:

– هل زنيت؟

قال الرجل:

– نعم!

فسأله الحبر:

هل قتلت نفساً بغير حق؟

قال الرجل:

– نعم!

فسأله الحبر:

– هل شربت الخمر؟

قال الرجل قاطعًا على الحَبْر أسئلته:

– نعم! وأكثر من هذا بكثير!!..

فوقع فى نفس الحَبْر أن ذلك الرجل قد أسرف على نفسه حتى أنه لا يجد له توبة، ولم يرد أن يخبر الرجل صراحة بهذا حتى لا يصدمه، وأراد تعليق توبته على أمر مستحيل فقال له:

– إن توبتك أن تأتى بعرجون من النخيل[1] يابسًا، وتضعه فى بيتك، وتعمل الصالحات، فإن أصبح وبه خَضَارْ فهذا علامة على قبول توبتك!!..

فصدَّقه الرجل من فَرْط رغبته فى التوبة وحرصه الشديد على عدم العودة إلى حياة المعاصى وما جلبته عليه من مصائب وآثار مدمرة على المستوى الشخصى والاجتماعى..

وعاد إلى بيته وقد صدق عزمه على عمل الصالحات لا يثنيه عن عزمه أحد ولا شئ، ولا يشغله عن إحسانه وعباداته واستقامته شاغل..

وكان الرجل التائب إذا أصبح الصباح نظر إلى العرجون فلا يرى به اخضراراً فيحزن يقول لنفسه بأسف:

– لم يتقبل الله توبتى ولا عملى..

(١) العرجون من النخيل كالعنقود من العنب.

ثم يزيد فى عمل الصالحات والإنفاق فى سبيل الله والتعاون على الخير، وإقامة المناسك... وكل أنواع العبادة... ثم يعود فيراه يابسًا كما هو!.. لكنه لم يقنط من رحمة الله يومًا ولا أصابه اليأس أبدًا، واستمر يزيد فى عبادته وبأنواعها ومراعيا طاعة الله تعالى فى الأوامر والنواهى..

حتى إذا كان ذات صباح وجد العرجون مخضرًا! فحمله سعيدًا وأسرع به بشوق إلى الحَبْر الذى تعجَّب وقال لنفسه:

- لا تُعَلَّق التوبة إلى الله تعالى بمستحيل..



جـزاء الإحســـان

قال الوزير أبو المظفر عون الدين بن يحيى بن هبيرة: كان سبب ولايتى الوزارة أننى ضاق ما بيدى حتى فَقَدْتُ القُوتَ أياماً! فأشار علىّ بعض أهلى أن أمضى إلى قبر معروف الكرخى رضى الله عنه فأسأل الله تعالى عنده؛ فإن الدعاء عنده مستجاب[1] فأتيت قبر معروف فصليت عنده! ودعوت.. ثم خرجت لأقصد بغداد، فمررت بعطفاء[2] فرأيت مسجداً مهجوراً، فدخلت أصلى فيه ركعتين وإذا فيه رجل مريض مقعد، فقعدت عند رأسه فقلت له:

- ما تشتهى؟!

قال الرجل فى صوت واهن:

- سفرجلة!!..

فخرجت إلى بقال هناك فرهنت عنده مئزرى على سفرجلتين وتفاحة وآتيته بذلك، فأكل من السفرجلة ثم قال:

- أغلق باب المسجد!!..

فأغلقته، فتنحَّى قليلاً وقال لى:

(١) إجابة الدعاء لا علاقة لها بقبر أحد مهما كانت منزلته، ولكن ابن هبيرة دعا دعاء المضطر ودعاء المضطر مستجاب، والدعاء عند القبور به شبهة شرك فيكره...

(٢) مكان أو شارع جانبي.

– احفر هاهنا!!

فحفرت فإذا بكوز! فقال:

– خذ هذا فأنت أحق به..

فقلت مذكِّرًا له بحق الله تعالى:

– أمالك وارث؟

قال الرجل وقد خارت قواه:

– كلا! وإنما كان لى أخ وعهدى به بعيد، وبلغنى أنه مات، ونحن من الرصافة..

فبينما هو يحدثنى إذ قضى نَحْبَه، فغسلته وكفنته وصلَّيْت عليه ودفنته، ثم أخذت الكوز وفيه مقدار خمسمائة دينار، وأتيت إلى دجلة لأعبرها، وإذا مَّلاح فى سفينة عتيقة وعليه ثياب رثة، فنادى علىّ:

– معى معى!

فنزلت معه، وإذا به من أكثر الناس شبهًا بذلك الرجل الذى قابلته فى المسجد!! فسألته لأتأكد:

– من أين أنت؟

قال:

– من الرصافة! ولى بنات، وأنا صعلوك!!..

فسألته لأستوثق منه:

فمالك أحد؟

قال:

ـ كلا! كان لى أخ منذ زمان ولّى، ما أدرى ما فعل الله به!..

فقلت وقد عرفت أن الله تعالى ساقنى لأوصل هذا الإرث لأصحاب الحق الشرعى فيه:

ـ ابسط حجرك!

فبسطه، فصببت المال فيه، فَبُهِتَ!!.. فحدثته الحديث، فسألنى أن آخذ نصفه، فقلت فى إصرار وتعفف:

ـ لا والله! ولا حبَّة!!..

ثم صعدت إلى دار الخلافة وكتبت رقعة أطلب فيها عملاً، فخرج عليها الإشراف على المخزن.. ثم تدرجت فى المناصب حتى وصلت إلى الوزارة ببركة العمل الصالح وتقوى الله تعالى والإحسان والأمانة.

★ ★ ★

الميـــراث..بطيخـــة!

ورث ثلاثة أولاد عن أبيهم بطيخة عظيمة! فقد كان فلاحًا ماهرًا، وكانت هذه الثمرة هى خلاصة عرقه بعد الغرس والتعهد، فأوصاهم بها بالحفظ والاعتزاز باعتبارها من ذكرى أبيهم..

كانت الثمرة فى أول عهدها خضراء نضرة لامعة نظيفة يعجب بها كل من يراها، بمرور الزمن وتقلبات الأجواء وانصراف الأبناء وانشغالهم بدأ الفساد يدب فيها فأصابها الوهن! وبدأت فى التحلل من الداخل أولاً ثم أصاب قشرتها لين حتى تمزقت وانبعثت منها رائحة كريهة تصيب من يشمُّها بالغثيان ومن يعرفها من قبل يشفق على مصيرها..

وكان على الإخوة الثلاثة أن يقرروا مصير هذه البطيخة العزيزة التى أصابها العطب، وانقسموا إلى ثلاثة أقوال:

قال الأول:

– لابد من الاحتفاظ بها رغم كل شئ، ولو تعرضنا بسببها للهلاك؛ لأنها كانت سببًا للبرِّ بأبينا ولو ألقيناها نكون قد عققناه ولم ننفذ وصيته، خاصة وأنها كانت رمزًا لتفوق أبينا وتميُّزه ومجده فى الزراعة..

وقال الثانى معترضًا:

– كلا! لا يجب الاحتفاظ بهذا الشئ الكريه، إن هذه البطيخة الفاسدة ليست هى نفس البطيخة التى تركها لنا أبونا، لقد كانت نضرة

تُعْجِب الزراع، والآن فسدت، وعلينا أن نشترى بطيخة جديدة، فإن البطيخ كله سواء! ولو تركنا هذه البطيخة فى مكانها لكانت وبالاً علينا وعلى صحتنا ولاتهمنا الناس فى عقولنا وتمييزنا.. بل أقول: إن كل بطيخة أخرى هى خير من بطيختنا بعدما ما أصابها من فساد..

وذهب الثالث مذهبًا وسطًا فقال:

– رأيى أن نستخلص البذور من هذه البطيخة فهى اللُّب الذى يمكننا بذره ليخرج لنا بطيخًا جديداً نَضِراً صالحًا، تتصل الوشائج بينه وبين تراث أبينا.. أما الاحتفاظ بالبطيخة الفاسدة حتى يأتى الدود عليها جميعًا فجلبة للسخرية والأمراض، ومضيعة للبطيخة ذاتها.. وأما رميها برمتها والاعتياض عنها بأخرى جديدة فتبديد لتراث أبينا وللنقود التى نؤديها فى ثمن هذه وأثمان غيرها، وما نشتريه جديداً لابد أن يجرى عليه من الفساد مثل ما جرى على بطيختنا إن نحن احتفظنا به قَدْر احتفاظنا بها أقل.. وإن التجديد هو ملاك الحياة؛ بيد أن كل جديد ينبغى أن يتولد من بذور الماضى، وهذه البذور لابد أن تُبْذر فى أرض الماضى ولو تغيرت الفروع لتتواءم مع مقتضيات الفصول، وتناولها التطعيم لتجويد الثمار..

وهكذا انتصر الرأى الثالث لأنه أصلح الآراء وأوسطها وأعقلها، رغم أنه أصعب الآراء؛ لأنه يكلف الأبناء عملاً دؤوباً مستمراً جاداً متقنًا قد يستغرق حياة الأبناء الثلاثة وحياة أولادهم وأحفادهم.. حتى تعود إليهم عزة أبيهم وعزتهم..



جزاء البرِّ في البحر!

مرض رجل مرضًا شديداً واحتاج إلى من يرافقه ويرعاه، وكان له أربعة أولاد، فأراد أحدهم أن يمرِّض أباه ابتغاء ما عند الله تعالى من الأجر والثواب جزاء البرِّ بوالده فقال لإخوته:

– إما أن تمرِّضوه وليس لكم من ميراثه شئ! وإما أن أمرِّضه وليس لى من ميراثه شئ!!..

قالوا متفقين:

– بل تمرِّضه أنت وليس لك من ميراثه شئ..

فمرَّضه الابن حتى مات، ولم يأخذ من ميراثه شيئًا، فرأى فى المنام رؤيا عجيبة! حيث آتاه آتٍ فقال له:

– ائت مكان كذا وكذا فخذ منه مائة دينار.

فقال الابن مبتغيًا ما عند الله تعالى:

– أفيها بركة؟

قال الهاتف:

– لا!

فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته فقالت له:

– خذها! فإن من بركتها أن نكتسى منها ونعيش بها . .

فلم يفعل، لما أمسى آتاه آت فى المنام وقال له :

– ائت مكان كذا وكذ فخذ عشرة دنانير .

فقال الابن مبتغيًا ما عند الله تعالى :

– أفيها بركة؟

قال الهاتف :

– لا!

فلما أصبح ذكر لامرأته، فقالت له مثل ذلك، فأبى أن يأخذها، فأتى فى الليلة الثالثة، فقيل له :

– ائت مكان كذا وكذا وخذ منه دينارًا! . .

قال الابن :

– أفيه بركة؟

قال الهاتف :

– نعم! . .

فذهب فأخذ الدينار من الموضع الذى حدده الهاتف فى المنام! ثم خرج إلى السوق، فقابله رجل يحمل سمكتين فسأله الابن :

– بكم السمكتين؟

قال الرجل:

- بدينار!

فأخذهما منه، وانطلق بهما إلى بيته فلما شقهما وجد فى بطن كل واحدة منها دُرَّة لم يَرَ الناس مثلها!!.. وبينما هو ينظر إلى الدرتين معجبًا إذ سمع منادى الملك ينادى برغبة الملك فى شراء درة نادرة ثمينة، فباعها للملك بثلاثين وقرًا[1] ذهبًا!.. فلما رآها الملك قال:

- ما تصلُح هذه إلا بأخت! فاطلبوا أختها ولو أضعفتم الثمن!!..

فجاءه أعوان الملك فقالوا:

- أعندك أختها ونعطيك ضعف ما أعطيناك؟

قال الابن.

- نعم!

فأعطاهم الثانية بضعف ما باع به الأولى[2]..

★ ★ ★

---

(١) الوقر: الحمْل

(٢) المحاسن والمساوئ، والقصة رواها طاووس عن أبيه.

أمة تحفر قبورها
(فانتازيا واقعية)

حُكِيَ أن ذا القرنين أتى على أُمَّة من الأمم ليس بأيديهم شئ مما يستمتع به الناس من ألوان المتع الدنيوية، قد احتفروا قبوراً، فإذا أصبحوا كان يومهم كالآتى:

صيانة القبور وتعهدها وكنسها.. ثم الصلاة لله تعالى بجوارها حيث تذكِّرهم بالموت.. وكان طعامهم من نبات الأرض، وكانوا يأكلون البقل!..

فأرسل ذو القرنين –وكان ذا هيبة وتمكين فى الأرض وعلم بأسبابها– إلى ملكهم رسولاً، فقال الرسول:

– أجب ذا القرنين!..

لم تهتز للملك شعرة، رغم أن كثيراً من الملوك الأشد تمكيناً يهتزون لمجرد ذكر اسم ذى القرنين!! وقال للرسول فى هدوء:

– ما لى إليه حاجة، فإن كان له حاجة فليأتنى!!..

فلما بلغ الكلام ذى القرنين قال:

– صدق!!..

فأقبل إليه وقال له:

– أرسلت إليك لتأتينى فأبَيْتَ! . .

فقال الملك:

– لو كان لى إليك حاجة لأتيتك.

فقال ذو القرنين:

– ما لى أراكم على حالة لم أر أحداً من الأمم عليها؟

قال الملك:

– وما ذاك؟

قال ذو القرنين:

– ليس لكم دنيا ولا شئ، أفلا اتخذتم الذهب والفضة فاستمتعتم بها؟!

قال الملك:

– إنما كرهناهما لأن أحداً لم يُعْطَ منهما شيئًا إلا تاقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه.

فقال ذو القرنين:

– فما بالكم احتفرتم قبوراً، فإذا أصبحتم تعهدتموها؟!

قال الملك:

– أرادنا إذا نظرنا إليها أملنا الدنيا منعتنا قبورنا من الأمل.

قال ذو القرنين:

- وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض، أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام فاجتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها؟!..

قال:

- كرهنا أن نجعل بطوننا قبوراً!! ورأينا فى نبات الأرض بلاغًا، وإنما يكفى ابن آدم القليل من الطعام، وإن ما جاوز الحنك[1] لم نجد له طعماً..

ثم بسط الملك يده،وكان جالسًا بجوار ذى القرنين، خلف ذى القرنين فتناول جمجمة!! وقال:

- أتدرى من هذا؟

قال ذو القرنين:

- لا! ومن هو؟!

قال الملك:

- هو ملك من ملوك الأرض أعطاه الله سلطانًا فغشم وظلم وعتا، فحسمه الله بالموت فصار كالحجر الملقى! وقد أحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به فى آخرته..

ثم تناول جمجمة أخرى وقال:

- وهذا ملك جاء من بعده فرأى ظلم الملك السابق فتواضع وخشع

(١) الحنك: تجويف الفم.

لله، فأحصى الله عليه عمله حتى يجزيه به فى آخرته..

وفجأة أمسك الملك برأس ذى القرنين ونظر فى عينيه بثبات وقال له ناصحًا:

- وهذه الجمجمة سوف تكون كهاتين فانظر ما أنت صانع!..

ثم أعرض عنه، فقال ذو القرنين:

- ياليتك تصحبنى لتنصحنى!

فقال الملك رافضًا:

- ما أصلح أنا وأنت فى مكان!..

قال ذو القرنين: -ولِمَ؟!

قال الملك: - لأن الناس أعداء لك وأصدقاء لى، أعداء لك لأن معك السلطان والمال والدنيا، وليس معى شئ منها[1]..

(١) مكاشفة القلوب: الغزالي.

فهرس الكتاب

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

٢- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن — محمد فؤاد عبد الباقي

٣- الجامع لأحكام القرآن — القرطبي

٤- فتح البارى — ابن حجر

٥- صحيح مسلم

٦- إحياء علوم الدين — أبو حامد الغزالي

٧- حياة الصحابة — الكاند هلوي

٨- قصص الأنبياء — ابن كثير

٩- حلية الأولياء — أبو نعيم الأصبهاني

١٠- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب — ابن عبد البر

١١- المستطرف فى كل فن مستظرف — الأبشيهي

١٢- نزهة المجالس — عبد الرحمن الصفوري الشافعي

١٣- الرياض الندية فى الخطب المنبرية — محمد حلمي خضر

١٤- الخطب المنبرية — عبد الحميد كشك

١٥- مواقف بطولية من صنع الإسلام — زياد أبو عتيمة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٨٦ ٤٩ / ١٩٩٨

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدى ـ ١١٢٣١